

لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين

تقديم: رجب البنا



دار المعارف

لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين

تقديم: رجب البنا

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

اهداء

الى السيدة —وزان مبارك

تعدنيا لدورها في بعث النهضة
الثقافية والحضارية .. واعادة الذاب الى مكانته
وتحقيق الريادة للحمة ورعاية الاجيال
الجديرة ..



رجب البنا

قصتي مع الكتاب

قرأت هذا الكتاب لأول مرة وأنا طالب في المدرسة الثانوية، وأعجبتني إلى حد أني كنت أحت زملائي على قراءته، وأعيده لهم حتى وقع في يد واحد ممن لا يردون الكتب فضاع مني، وظللت سنوات أبحث عنه في كل مكتبة، وأسأل عنه كل صديق، فلم أوفق في العثور عليه.. ولكنني تأثرت بهذا الكتاب تأثراً شديداً، حتى أنني أتصور أن حبي للقراءة وتعلقى بالكتب ازداد كثيراً نتيجة لهذا التأثير..

وظللت لسنوات أتذكر ما كتبه العقاد في هذا الكتاب بصفة خاصة، من أنه يقرأ لأن حياة واحدة لا تكفيه، وهو يريد أن يجمع بين حياته وحياة المئات من الرجال العظام أصحاب الفكر والتجربة.. وفي كل كتاب كنت أقرؤه كنت أجد تصديقاً لما قاله العقاد.. فالقراءة هي الوسيلة المثلى للتعلم، وإضافة أفكار وخلاصة خبرات الآخرين إلى خبراتنا وأفكارنا، وهي النافذة التي نطل منها على العالم الواسع خارج دائرة الذات المحدودة، لنعيش الحياة بعمق أكبر، وبوعي أعمق..

وحين توليت مسئوليتي عن دار المعارف شعرت أن هذه منحة من الله، لأعيش في الجو الذي أحبه، وأعايش أصحاب الفكر والرأي، وأقضى بقية حياتي بين الكتب قارئاً، وناشراً، وأحس أنني أصبحت مثل النحلة التي وجدت نفسها في بستان كبير، فلم تضيع الفرصة، وقررت أن تقتضى أيامها بامتصاص هذا الرحيق الجميل.. وأحمد الله أن أتاح لي هذه الفرصة لكي أشارك بنصيب - مع زملائي - في تقديم الكتاب الجيد للقارئ العربي،

ودار المعارف - كما كانت منذ نشأتها فى عام ١٨٩٠ - هى بيت الثقافة الرفيعة، ومصدر الإشعاع الثقافى الذى لا ينتمى إلى مصر وحدها، بل ملك للوطن العربى كله.

وكانت دهشتى شديدة حين التقيت بمفتى جبل لبنان فى مكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى فبادرنى بالحديث عن هذا الكتاب، وقال لى: إنه قرأه فى صباه وتأثر به، وطلب منى بعض نسخ من هذا الكتاب لكى يقدمها لأصدقائه وأبنائه ومريديه، لكى يحفزهم على القراءة.

ووعده بالبحث عن نسخة، ولكنى لم أستطع أن أفى بوعدى، لأنى اكتشفت أن جميع النسخ نفذت منذ سنوات طويلة، ولم يعد فى دار المعارف منها ولا نسخة واحدة، ولا حتى فى مكتبة المحفوظات فيها.. وبدأت رحلة البحث عن نسخة إلى أن عثرنا أخيراً عليها عند هاوٍ قديم للكتب يعرف قيمتها، ويحرص على الاحتفاظ بها، ورأيتُ أن أضيفَ إلى الكتاب القديم الذى شاركتُ فيه صفوة العقول والأقلام المصرية أستاذًا رسالته أن ينشر القراءة، ويشجع الشباب من أبنائه الطلبة على القراءة، ألا وهو الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم، فهو شديد الحماس لمشروع القراءة للجميع الذى يمثل نقطة تحول هامة من وجهة نظرى، بفضل رعاية السيدة سوزان مبارك، واهتمامها الشخصى، ومتابعتها للتوسع فيه عامًا بعد عام، لتكون الكتب الجادة متاحة بسعر رخيص لكل القراء العرب.



وفى اعتقادى أن الأجيال القادمة سوف تؤرخ لمرحلة النهضة المصرية بهذا المشروع.. لأن مواجهة الأزمات الاقتصادية، والاشتراك فى أربع حروب فى

نصف قرن، والمعارك السياسية المتتالية.. كل ذلك شغل المصريين لسنوات طويلة ثم جاءت مرحلة التنمية الاقتصادية والصناعية والعمرائية لتشغلهم فى مجال آخر.. وابتعد الشباب بصفة خاصة عن جانب مهم من جوانب التنمية الإنسانية.. هو جانب التنمية الحضارية والثقافية الذى يتجلى فى القراءة، ومتابعة تيارات الفكر والإبداع فى العالم، والارتقاء بالعقول وبخاصة عقول الأجيال الجديدة التى ستتولى القيادة فى مختلف المجالات ولا بد أن نحسن إعدادها لهذه المسئولية الثقيلة.



وكان لمشروع «القراءة للجميع» الفضل فى كشف حقيقة مهمة.. هى: أن بناء الإنسان عملية متشعبة، ومتعددة الجوانب، تقوم على عوامل كثيرة مختلفة ومتكاملة تبدأ من الطفولة وتتحمل الأسرة النصيب الأكبر من المسئولية عنها.. ثم تنتقل المسئولية إلى المدرسة لتشارك الأسرة فى عملية تكوين الطفل، ويشاركهما التلفزيون فى جميع مراحل العمر، بعد أن أصبحنا فى عصر أصبح فيه التلفزيون الرفيق الدائم الذى يقوم بدور الأب والصدىق والمعلم فى وقت واحد، ومنه يأخذ الطفل - والشاب - القدوة، والمثل، والنموذج، ويتغلغل تأثيره فى أعماق الطفل - والشاب - نتيجة السحر الخاص به من مشاهد حية، ومواقف وألوان من السلوك يتعلم منها الصغار - والكبار - كيف يحيون حياة الفضيلة، أو كيف ينزلون إلى حياة الرذيلة، بل إن التلفزيون فى بعض الأحيان يعلم من لديه استعداد للجريمة كيف يرتكب الجريمة الكاملة مستخدماً أدوات العصر..!



ولذلك فإننى أرى أن مشروع القراءة للجميع جاء فى الوقت المناسب ليعيد الإحساس العام بأهمية القراءة، وأهمية الكتاب، ويعيد إلى الكتاب قيمته

ومكانته، ولا يترك الساحة للتلفزيون وحده لينفرد بتكوين العقول والاتجاهات لدى أجيال الشباب الجديدة.. والتلفزيون فى النهاية وسيلة إعلام، ومتابعة للأحداث، وقد يكون وسيلة تسلية وقضاء وقت الفراغ، ولكنه ليس وسيلة تثقيف.. فالثقافة مصدرها الرئيسى هو الكتاب، وتأتى المصادر الأخرى فى مرتبة تالية.

فى اليابان ظهرت أخيراً شكوى الآباء والمربين، والمسئولين عن رعاية الشباب فى الجامعات من مشكلة غريبة أصبحت تؤرق الجميع، فقد اكتشفوا أن طلبة الجامعات، وقد تجاوزوا مرحلة الطفولة بسنوات، يقبلون على قراءة مجلات مصورة من طراز «ميكى وبطوط» المخصصة للأطفال فى مراحل السن المبكرة، وهى مجلات تقدم قصصاً بسيطة وسطحية فى شكل «سيناريو» بالرسوم والألوان تصاحبها كلمات قليلة.. وليس فى هذه المجلات شىء يمكن اعتباره من الثقافة أو المعرفة أو يمثل إضافة فى التكوين العقلى والنفسى والروحى لهؤلاء الطلاب الكبار.. ومعنى ذلك أن الأجيال الجديدة مهددة بالسطحية، والجهل، والاكتفاء بوهم الثقافة.

وأجروا بحثاً واسماً بين هؤلاء الطلاب كانت نتيجته أن التلفزيون هو السبب.. لأنه غرس فى هذا الجيل الارتباط بالصور والألوان والمشاهد الحسية المتتابة، ولم يغمس فى التماس المعرفة بالقراءة، والارتباط بالكلمات المجردة التى تحرك العقل والوجدان دون الاعتماد على وسيلة حسية.. ودق رجال التربية فى اليابان أجراس الخطر، وحذروا من طغيان حضارة التلفزيون.. وهى حضارة صور زائفة.. لا يمكن استعادتها.. ولا التوقف لحظة للتفكير والهضم والاستيعاب.. ولا تؤدى إلى تكوين عقلى حقيقى.

ومثل هذه الفجوة بين الشباب وعدم القراءة حدثت فى مصر لفترة طويلة، بعد أن اعتاد الشباب تحصيل معلوماته بطريقة سلبية، بأن يجلس أمام

التلفزيون، ويترك نفسه وعقله لسيل الصور التي تتدفق ملونة ومبهرة، دون أن تدع له فرصة للتفكير، أو التحليل، أو التأمل، أو استنباط فكرة جديدة من الأفكار المطروحة أمامه كما يحدث عند قراءة كتاب جيد.

وكم شكونا من انصراف الشباب عن الثقافة الجادة. وأذكر أن الدكتور لويس عوض قاد حملة واسعة أثارت القلق على المستقبل العلمى والثقافى والحضارى لمصر ولسائر البلاد العربية، بسبب هذه الفجوة..

كما أذكر حملة أخرى قادها الدكتور يوسف إدريس بدأها بمقال شهير بعنوان «أهمية أن نتثقف ياناس»، قدم فيه تحليلاً لحالة التدهور الاجتماعى التى يمثل التدهور الثقافى أهم أسبابها، ويكشف فى هذا المقال الارتباط الحتمى بين تدهور الثقافة الجادة وتدهور المجتمع، وتساءل: لماذا كانت كلمة «مثقف» علامة على أن المواطن صاحب مقام رفيع، وكان ذلك يعكس احترام الثقافة والمثقفين كجزء لا يتجزأ من قيم الشعب المصرى، ثم انقلبت أمورنا فأصبحت كلمة «مثقف» تقال من باب «التريقة»؟.

وما يؤكد نظرة يوسف إدريس ما كشفت عنه نتائج اختبار المتقدمين لشغل وظائف المذيعين ومقدمى البرامج فى الإذاعة والتلفزيون، ووظائف السلك الدبلوماسى فى وزارة الخارجية، فقد كشفت إجاباتهم على أسئلة بسيطة عن جهل مخجل وعزلة عن مصادر الثقافة والمعرفة، ولم ينجح فى هذه الاختبارات أحد من آلاف المتقدمين من خريجي الجامعات..

ولو كنا أعطينا حديث يوسف إدريس ما يستحقه من الاهتمام لكنا قد غيرنا فى المناهج والأساليب، وفتحنا أمام الشباب مبكراً أبواب الثقافة الحقيقية وهى القراءة..

وتحليل يوسف إدريس لانصراف الشباب عن الثقافة يبدأ من متابعة برنامج للمسابقات كان يقدمه التلفزيون للشباب على هيئة امتحان فى المعلومات، وفى

كل الحلقات كانت المعلومات العامة للمشاركين جميعاً تساوى صفراً، ولا ينجحون إلا فى الإجابة على السؤال الخاص بالأمثلة الشعبية، ومعنى ذلك أنهم لا يقرءون، وإنما يتلقون المعرفة سماعاً، وربما من أمهاتهم وخالاتهم فقط..!

وإن كان يوسف إدريس قد انتهى فى تحليله لأسباب هذه الظاهرة الخطيرة إلى توجيه الاتهام إلى ثورة يوليو، رغم أنه من كبار المثقفين الذين ساندوا الثورة وأعطوها المضمون الفكرى.. ولكنه فيما يبدو اكتشف أن الثورة دفعت إلى الساحة جماهير غفيرة من الطبقة المتوسطة الصغيرة التى كانت تعيش على هامش الحياة، وفتحت الثورة لها أوسع المجالات، ولكن لم توفر لها ما يجعلها متحضرة منظمة، وكلما ارتفعت اقتصادياً ارتفعت سلوكياً وفكرياً وإنسانياً.. فالثورة اهتمت بالتعليم ولم تهتم بالثقافة.. وتعليم بلا ثقافة لا يتعدى خلق كائنات ميكانيكية لا تجيد إلا صنعة أو حرفة.. فالتعليم تدريب على المهارات العقلية واليدوية، أما الثقافة فهى تدريب العقل نفسه، وبدونها يتحول الإنسان إلى حيوان آكل، شارب، نائم، متناسل، وبدون الثقافة للإنسان تصبح أية دابة أحسن منه، فهو دوناً عن الدواب مزود بعقل لا بد أن يعمل، وإذا لم يعمل فى اتجاه صالح فلا بد أن يعمل فى اتجاه خاطئ وأحياناً إجرامى..

ويوسف إدريس يرى- أن ما نشكو منه من السلبية، والفوضى، وانعدام الضمير، وغياب القيم، والهرجلة، والارتجال، وبقية شكوانا الخاصة بالإنسان سببها أننا تحولنا إلى مجتمع جاهل - كما يقول - حتى وإن كان بعضه متعلماً.. مجتمع غير واع أو مدرك.. أى غير مثقف.. مجتمع «همه على بطنه» ليست فيه صفة قائدة مثقفة محترمة.

هذه الرؤية مع ما فيها من تحامل وتشاؤم ومبالغة فإنها فى مجملها صحيحة، وتنطبق على المرحلة التى كتب فيها يوسف إدريس مقالاته فى بداية الثمانينات، ولو امتد به العمر لرأى أن هناك أموراً كثيرة قد تغيرت.. وأن هناك الكتب الجادة التى تطبع منها عشرات الآلاف من النسخ وتباع بثمن زهيد فى مشروع القراءة للجميع، وتشارك فيه دار المعارف بما لديها من ثروة فكرية وأدبية هى رصيد العمل الجاد طوال ١٠٨ أعوام..

ولكن رؤية يوسف إدريس الواضحة الشجاعة تضىء أماننا أضواء صادقة ومخلصة على الواقع بغير نفاق، والعودة إليها الآن تجعلنا ندرك إلى أى مدى يمثل مشروع القراءة للجميع مشروعاً حضارياً كبيراً يعيد الثقافة الجادة إلى مكانها، ويحقق التوازن فى المجتمع بين التنمية الاقتصادية والتنمية الثقافية، لكى لا تنشأ طبقة لديها الثروة دون أن يكون لديها المحتوى الروحى الثقافى والحضارى الذى يمنع تحولها إلى طبقة مستغلة.. ولكى تنشأ أجيال جديدة تعرف قيمة القراءة، وتدرك أنها ليست ترفاً أو تزجية لوقت الفراغ، ولكنها ضرورة حياة ونمو للإنسان لا تقل أهمية عن الخبز والحرية.. ولكى نحقق هدفنا فى بناء جيل من المصريين يعايش العصر ويرتبط فى نفس الوقت بجذوره الروحية والفكرية، ويمتلئ وجدانه بتراث الأمة وتاريخها العريق الضارب فى القدم بكل مراحلها، ويمتلك القدرة على التفكير العلمى والرؤية المستقبلية ولا يتوقف عند الحاضر فقط، ولا يرتد إلى الحياة فى الماضى الذى انقضى ولن يعود، ولم يعد أماننا إلا المستقبل.. ولا بد من الاستعداد له قبل أن يأتى ونحن قاعدون..!

وللقراءة فى حىاتى أثر كبير..

فقد بدأت القراءة مع الأيام الأولى التى تعلمت فيها التمييز بين الحروف، وكان الفضل فى ذلك لدرستى التى قضيت فيها أجمل سنوات الطفولة، ولا أستطيع أن أنسى فضلها، ففى مدرسة الأقباط الابتدائية فى دمنهور كانت مكتبة المدرسة مفتوحة للأطفال ترحب بهم فى كل وقت، وكان أمين المكتبة أباً وموجهاً، وكانت فى جدول الدراسة حصة يومية للمطالعة الحرة ننتقل فيها إلى المكتبة ونقرأ القصص المشوقة، ونناقشها فى حصة التعبير مع أستاذ فاضل مازالت ذكره ماثلة فى ذهنى رغم مرور عشرات السنين، مما يؤكد أن الفضل لا يضع بين الله والناس..

وبعد ذلك انتقلت إلى مكتبة البلدية فى دمنهور وقرأت فيها عشرات الكتب، وتعرفت بانبهار على عالم سحرى فتحه أمامى طه حسين، والعماد، وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وأحمد حسن الزيات، والدكتور محمد حسين هيكل، ويحيى حقى، والمازنى، والدكتور أحمد زكى، وشبلى شميل، ثم انتقلت إلى عالم ديستوفسكى، وتشيكوف، وآدم سميث، وماركس، وكينز، وفرويد، وكانط، وأفلاطون، وعشرات من أصحاب العقول المضيئة فى الأدب، والفلسفة، وعلم النفس، والإسلاميات، والاقتصاد، والسياسة..

وظل النهم للمعرفة يصاحبنى سنوات عمرى، فأساعد كلما وجدت كتاباً جديداً، ولا أفرق بين القراءة فى علوم الطبيعة والطب والفلك وبين القراءة فى التاريخ والأدب والفلسفة، فقد تكوّن لدى يقين بأن التكوين الثقافى والعقل السليم يجب أن يعتمد على كل ما يستطيع العقل أن يستوعبه من معرفة فى كل مجال..

ووجدت أن الاطلاع على علم يفيدنى فى فهم ما أقرؤه فى علم آخر، وآمنت بأن خير رفيق فى الزمان كتاب كما يقول الشاعر.. صداقة الكتاب تفيد وتدوم وعطاؤها يتجدد.. وصداقة الكتاب لا ترهق.. وتعطى للإنسان قيمة حقيقية.. وعندما يسألنى سائل عن أكبر دافع حفزنى إلى القراءة أجيب بلا تردد: هذا الكتاب الصغير الذى أصدرته دار المعارف منذ سنوات، ووقع فى يدي فكان له تأثير السحر، كما فعل مع مفتى جبل لبنان، ومع عشرات الآلاف من أبناء جيلى..

ولذلك رأيت أن تعيد دار المعارف طبع هذا الكتاب لتقدمه للشباب العربى آملاً أن يجدوا فيه ما وجده أبناء جيلى من متعة ودافع للقراءة والارتقاء بالفكر والسلوك.

عبد الباق



الدكتور حسين كامل بهاء الدين

بساط الريح السحري

كانت القراءة والكتابة أداة الاتصال الأولى بين البشر وكانت جسراً للتواصل بين الأجيال وعبر المسافات والأزمنة.

كانت القراءة أقوى وسائل التعليم والتعلم على مر العصور وكانت مصدر نور وإشعاع للبشرية كلها لملايين من البشر.

لولا القراءة والكتابة ما كان التاريخ، ولولا هذه الشفرة السحرية المبسطة لما كان التقدم ولا كانت المدنية.

لقد كانت القراءة بنكاً ورسيداً للخبرة الإنسانية، ومستودعاً لذكريات ملايين من البشر ملئوا الدنيا نشاطاً وحركة، كانت أحاديثهم وضجيجهم، وأفراحهم وأحزانهم ملء السمع والبصر، كانوا بشراً مثلنا، أزواجاً وزوجات، أطفالاً وشيوخاً، وكانت لهم حياتهم بها فيها من كد وعمل وما يتخللها من فرح وشقاء، فلقد مشوا على هذه الأرض وبنوا وعمروا، وأحياناً دمروا، ثم انقطعت أخبارهم ولولا الكتابة والقراءة لكانت حياتهم سراباً معدوماً وكانت ذكراهم نسياً منسياً.

كانت القراءة خبرة متراكمة على مر الأجيال تقدمت بها البشرية وتنورت بها الإنسانية، وتواصلت بها قدرات البشر على مر العصور من جيل إلى جيل.

القراءة كانت بالنسبة لى بساط الريح الذى نقلنى فى رحلات بعيدة، عبر المسافات الشاسعة وعبر الزمان.

كانت القراءة آلة سحرية للزمن استطاعت أن تعيدنى فى لمح البصر إلى عصور غابرة وإلى حضارات مندثرة وإلى بشر عاشوا على هذه الأرض من مئات وآلاف

وملايين السنين ولم يكن لي ولا لغيري أن يتعرف عليهم ويتواصل معهم ويلمس مشاعرهم وآمالهم لولا هذه الأداة الساحرة «القراءة».

كما كسرت القراءة حاجز الواقع فعرفتني بأشخاص وشخصيات من إبداع أدباء وشعراء صنعوا من خيالهم شخصيات عجيبة، تجسد معاني وقيماً وسلوكيات فريدة داعبت خيالي وألهبت عواطفى وشرحت لي نفسيات ومواقف، وصورت لي أبطالاً وشياطين.

ونقلتني آلة الزمن المبسطة إلى كواكب أخرى وكسرت حاجز الرؤية بين الواقع والخيال. كانت بالنسبة لي في مرحلة الطفولة الفانوس السحري العجيب والسينما الرائعة وعالم الحقيقة الاعتبارية المبهر الذى نقلنى إلى مجالات رائعة وخيال بعيد.

ولقد كانت القراءة في مرحلة الصبا والشباب الصديق الذى حنكته التجارب، والحكيم الذى صقلته الأيام، والعالم الذى يعطى تلاميذه عن سعة وبلا مقابل. وكانت الانطباعات التى أكتبها فى مذكراتى زاداً للحكمة والموعظة حين قرأتها بعد ذلك.

واستمرت القراءة فى مرحلة المراهقة، دليلاً للإيمان والإلهام ومصدرًا للمثل العليا والأخلاق الحميدة.

فلقد كان القرآن الكريم وكانت حياة محمد وعبقرات العقاد زاداً لا ينضب وسيابجاً منيماً ضد مخاطر هذه المرحلة الحرجة وفى وجه رفقاء سوء.

وبذلك كان الكتاب صديقاً حميماً خلال مراحل العمر المختلفة أعطانى خلاصة التجربة التى كنت فى أشد الحاجة إليها فى مرحلة الصبا والشباب فاستفدت من حكمة المجربين وتجنبت أخطاء الآخرين.

وكانت القراءة لقاءً حميمًا مع فئات من البشر لم أرهم إلا بعيون الحروف والكلمات، فرحت لأفراحهم ودمعت عيناي أحيانًا لأحزانهم، أحسست بمشاعر نبضت بها قلوب كثيرة واستغرقت أعوامًا طويلة.

وأعطتني القراءة فرصًا لا تعوض لاستكشاف مجالات متعددة.. حلقت بي إلى آفاق بعيدة وغاصت بي إلى أعماق سحيقة إلى قاع البحار العميقة، إلى باطن الأرض المنصهر، إلى حفريات ترجع إلى ملايين السنين.

كما كسرت حاجز الزمن ومرت أمامي مواكب التاريخ المهيبة بعظماؤها وأبطالها، إذ قدمت لي عظماء ملئوا الدنيا بريقًا يوميًا من الأيام، فسمعت أحاديثهم وسبرت أغوارهم واطلعت على أدق مشاعرهم، وفرحت مع أفراح التاريخ المهيبة، وحزنت مع مآسي العصور الغابرة.

ولقد أحسست بمرارة الظلم الذي تعرض له أبطال وشهداء فكرهت الظلم، وهالني جبروت بعض الطغاة فلم أطق التسوية. كما شاهدت النفوس الكبار التي تترفع عن الصغائر وتمغو عند المقدرة، وترد الإساءة بالإحسان، فتعلمت من القراءة التسامح والصفاء.

كانت القراءة بالنسبة لي معيّنًا لا ينضب للثقافة العامة، شددتني إلى مجالات الحياة المختلفة، وعودتني على الاهتمام بالآخرين، فكان كتاب ديل كارنيجي «كيف تكسب الأصدقاء» درسًا لي في الاهتمام بالآخرين، ومحاولة إسعاد من حولي من معارف وأصدقاء.

وكان كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» علاجًا نفسيًا علمني كيف أواجه الأزمات.

وكانت قصة «شوجن» لجيمس كلافل درسًا لي في الصبر وضبط النفس، مجسدًا في بطل القصة توروناجا الساموراي الياباني الذي عاش في القرن السادس عشر.

وكان كتاب «وحدة المعرفة» لكامل حسين درساً فى تكامل المعرفة والتقاء الثقافات.

وكانت كتب الخيال العلمى تجريبية فى كسر الجمود وممارسة مسئولة للحلم والخيال.

وكان تاريخ الاكتشافات العلمية وأبطالها العظام درساً فى الصبر والجدية، والتأمل ودقة الملاحظة.

سيظل الكتاب دوماً الصديق الذى لا يضيِّقُ بك ولا يتخلّسُ عنك مهما فعل الآخرون.

سيظل الكتاب المعلم الصبور الذى يعطيك من علمه، ولا يملُ من تكرار ما يعرضه عليك.

ستظل القراءة شريط الذكريات الذى تسترجع منه عبارات من تجارب الماضى وغيره، وعظات مشوار الحياة ودروسه.

سيظل الكتاب آلة الزمن السحرية وسفينة الفضاء الخارقة.

ستظل القراءة الرباط السحرى الذى يجمع البشر من كل البلاد والمصور ومن مختلف الأزمان.

ستظل القراءة طاقة هائلة للتعلم والثقافة والتواصل والتقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَتَقْرُونَكَ فَلَا تُنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى، وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى، فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ . [سورة الأعلى من الآية ٦ إلى الآية ٩].

«صدق الله العظيم»

دكتور حسين كامل بهاء الدين

مفديك..

الكلمة المكتوبة حرية والتزام

إن بينك وبينى ميثاقاً فيه حرية وفيه التزام . أما الحرية فللكلمة المكتوبة التي أنشرها : لى فيها حرية التأليف والترجمة ، حرية الاختيار والتوجيه ، حرية النقد ، حرية الإخراج . . وأخيراً حرية التوزيع . وأما الالتزام فهو أن أبحث عن الحقيقة فيما أكتب ، وأن أنشد الحق فيما أدعو له ، مع احترام حرية الآخرين فى الرد .

حرية والتزام . . حق وواجب . . تفاهمت عليهما معك ، وعملت بهما معاً أكثر من ثلاثة أرباع قرن ، فنحنى من ثقتك وإقبالك ما أقام لى هذا البناء الضخم الذى يشرف على النيل الأعظم فى وسط القاهرة ، ويفذى مكتبات العالم العربى بألوف من كتب العلم والثقافة .

وأنا أعرف أن العلم لا وطن له ، فتفتيت الذرة ، واختراع الصواريخ ، واكتشاف الدواء ، كلها ملك للبشرية . ولذلك عملت بالتأليف والترجمة على أن أنقل العلم لوطنى من الغرب إلى الشرق ، وأن أنقله عنه إلى الأوطان الأخرى . وأنا أعرف أيضاً أن الثقافة تصدر عن العقل والضمير ، فهى عصبية وإن لم تكن متعصبة ، ولذلك أسهمت فى نشر ثقافتنا العربية

ممثلة في ذخائر العرب ومؤلفات القادة من الفكر المعاصر .
ومعى قامت دار المعارف لبنان (ش . م . ل) في وسط بيروت
فأدت واجبها في توزيع الكتاب العربي من المحيط إلى الخليج ، وفي استيراد
أحدث الكتب العلمية من أوروبا وأمريكا ، فأدى تضامن الدارين إلى
هذا النجاح الذي ندين به لك .

وقد افتتحنا منذ أيام في قلب القاهرة مكتبة حديثة كبرى نضمها إلى
مكتباتنا السبع في القاهرة والإسكندرية وأسيوط لتعمل جميعاً على السمو
يعرض الكتاب ، وحسن تقديمه للقارئ .

واليوم تقدم لك في هذا الكتاب فصلاً عن القراءة كتبها من
أجلك صفوة من القارئ والمفكرين ، تحمل عصارات من انطباعاتهم
وخبراتهم ، ونهيئ لك فرصة أحسن ، لإنفاق وقتك في قراءة أنفع .
إنني أهدي هذا الكتاب إليك ، وأرجو أن يبقى في مكتبتك - بعد
أن تقرأه - دليلاً على حبك للقراءة ، وشاهداً على أن دار المعارف تتقيد
في التعامل معك بمبدأ الحرية والالتزام .

دارالمعارف بمصر



الأستاذ عارف يقول :

نحن نقرأ نعرف

كيف تعرف إذا لم
تقرأ؟ إن المطبعة أمّ
المعرفة: لها ثمانية وعشرون
جندياً هم حروف من
الرصاص ، تنفذ إلى
المعاني ، فتفتح مغاليق
الجهالة . وهذه الحروف
تدوب في كتاب ، ثم
ترسل إشعاعها عن طريق
العين إلى العقل والقلب ،
فإذا الإشعاع نور الدنيا
ولألاء الحضارات .





الدكتور طه حسين

زاد الشعب



هو القراءة يقبل عليها ويشجع بها جوعه إلى العلم والمعرفة وألوان الحضارة . إن الحث على القراءة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات ، في جميع الأمم والشعوب ، وفي الشعوب العربية بوجه خاص ، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن .

ولقد بدئ تنزيل القرآن بفعل قصير خطير هو كلمة «اقرأ» ؛ فكان أول ما خوطب به النبي - صلى الله عليه وسلم - وخوطب به الناس من بعده ، هو هذا الأمر الكريم بالقراءة .

وكان صاحب المنطق - كما يسميه الجاحظ - يقول إن الإنسان حيوان ناطق ، وكان النطق عنده فيما يحدثنا الفلاسفة أشمل من إدارة اللسان في الفهم باللفظ الذي يبلغ السمع ، فينقل إليك ما في نفس محدثك . كان النطق عند أرسطاطاليس يدل على التفكير والتعير جميعاً ، لكن

أرسطاطاليس لم يعرف الإنسان بأنه حيوان ناطق فحسب ، وإنما وصفه بأنه مدني بالطبع ، كما ترجم القدماء ، أو أنه اجتماعي بالطبع ، كما يترجم المحدثون .

وما نعرف شيئاً يحقق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيته ، كالقراءة ، فهى تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ . فالكاتب يفكر قبل أن يكتب ، وأثناء كتابته ؛ والقارئ يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته ، وبعد أن يقرأ .

وكذلك يمتضى الإنسان فى تحقيق هاتين الخصلتين اللتين تميزانه وتضعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفوق والرقى ، وهما العقل والمدنية . فإذا أمر الله الإنسان بأن يقرأ ، فإنما يأمره بأن يطمح إلى الكمال ، ويسعى إليه . وإذا كانت القراءة أخص مميزات الحضارة ، تكثر وتنتشر إذا اتسعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل إذا ضاقت الحضارة وانحطت ، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام أن تختصر الطريق ، وأن يعرف الإنسان بأنه حيوان قارئ دون أن يكون فى هذا التعريف تجاوز لما قصد إليه أرسطاطاليس .

وكانت القراءة فى أول أمر الإنسان مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة ، وكان رقى الحضارة واتساعها يدعوان إلى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقات .

وإذا القراءة تصبح حقاً شائعاً لكل إنسان بل واجباً محتوماً على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة . وإذا الدول تشعر بهذا الحق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس دون أن تتقاضى على ذلك منه أجراً . ونحن نعلم أن الدول إنما تعلم أبناء الشعب هذه القراءة الآلية وقليلاً جداً مما يهيئهم للقراءة التي ترقى العقل ، وتنقى الطبع ، وتصنى الذوق ؛ ولكن القراءة على كل حال هي الطريق الطبيعية الميسرة لرقى العقل ، والطبع ، والخلق ، والذوق . وحيثما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرءون ، وتنافس الممتازون منهم في أن يقدموا إليهم ما يقرءون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية ، وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى في حياة الناس ، وقد أخذت الدولة في الشرق تعلم الناس القراءة ، وأخذ الناس يطلبون ما يقرءون ، وأخذ الكتاب يتنافسون في أن يقدموا إليهم ما يقرءون .

ولكن الإنسان كسل بطبعه أيضاً ؛ فهو مشوق بطبعه إلى الرقى ، ولكنه مدفوع بطبعه إلى حب اليسر ، وإيثار السهولة ، وتجنب الجهد الشاق ما وجد إلى ذلك سبيلاً ؛ وهو محب للقراءة ما في ذلك شك ، ولكنه يريد أن تيسر له هذه القراءة ، ووجوه التيسير كثيرة مختلفة ، أخطرها وأعظمها ضرراً هو الذى يشيع وينتشر ، مع الأسف الشديد ، فالكلام السهل اليسير المبتذل القريب الذى ينتشر في الصحف السيارة التي يكفي الإنسان أن يمد يده ليتناولها ، وفي الكتب الرخيصة التي يحصلها

القارئ دون أن يشق على ماله ويقرأها دون أن يشق على عقله — هذا الكلام هو الذى يتأفت عليه القارئ بحكم هذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه، وهى خصلة الكسل ، وإيثار الهين من الأمور ، فلا بد إذن من أن تقاوم هذه الخصلة ما استطاع المثقفون مقاومتها ، ولا بد من أن تقرب القراءة الممتعة الخصلة إلى الناس حتى يستطيعوا أن يقرأوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم .

وليس كل ما ينتجه العقل الإنسانى ميسر القراءة للناس ، فهناك الممتازون فى الثقافة ، ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة . وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء . وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الإنسانى من الإنتاج . فلا بد إذن من أن يأخذوا منه بحظ ما ، لا بد من أن يرتفعوا إليه شيئاً ومن أن يهبط هو إليهم شيئاً ، حتى يكون هذا اللقاء الخصب الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب . وكل هذه الملاحظات دعت أصحاب الرأى إلى التفكير فى إنشاء سلاسل من الكتب القصيرة اليسيرة الرخيصة التى يسهل شراؤها وتبونها قراءتها ويقرب الانتفاع بها والاستمتاع بما فيها ولا يشق ثمنها على أوساط الناس ولا على فقرائهم .

فمثل تلك السلاسل جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات وهى نتيجة طبيعية لهذا

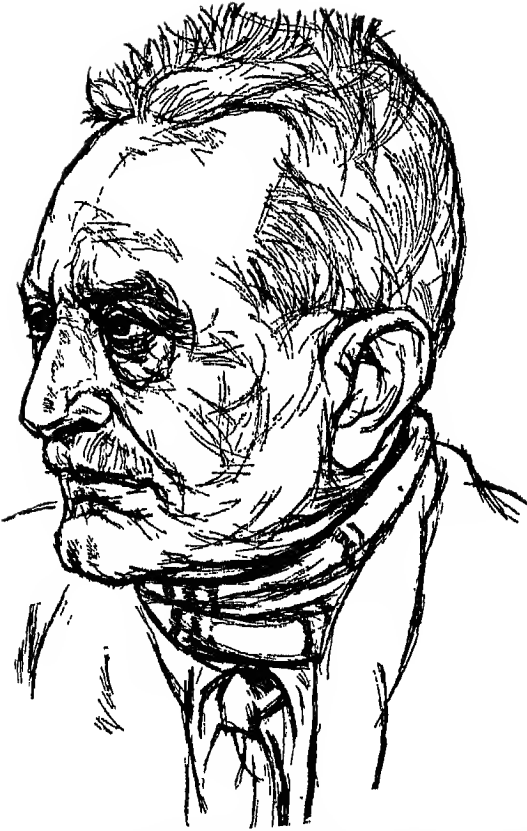
الطور الذى نحن فيه من أطوار حياتنا . وفي الأرض أمم سبقتنا فى هذا العصر الحديث إلى الرقى وقطعت فيه أشواطاً لم تقطعها بعد وهى مع ذلك بل من أجل ذلك تنشىء أمثال تلك السلاسل وتبذل فى إنشائها وإذاعتها وتيسيرها جهوداً عظيمة موفقة . فكيف بنا . وحاجتنا إلى هذا التيسير أشد من حاجتها ، وضرورات الحياة الحديثة تفرض علينا أن نقطع أبعد الآماد إلى الرقى فى أقصر الأوقات لنستدرك ما فاتنا ولنبلغ حقنا من المساواة بيننا وبين الشعوب المتفوقة .

والنية فى تلك السلاسل أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع وأنفعه . فهى تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة ، وهى تنشر الآثار التى تؤلف كما تنشر الآثار التى تترجم ، وهى تنشر من هذا كله فى كل فرع ممكن من فروع الإنتاج العقلى : فى الأدب الإنشائى وفى الأدب الوصفى ، فى العلم الخالص وفى العلم التطبيقى ، فى السياسة ، فى التاريخ ، فى العمران والاجتماع ، فى كل لون من ألوان هذا النشاط الذى يجعل العقل الإنسانى منتجاً فى جميع فنون المعرفة ، ذلك لأن الذين يعنون بإنشاء هذه السلاسل ونشرها لا يفكرون إلا فى شيء واحد هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب وأن ينتفعوا وأن تدعوم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى يجيئونها .

طه حسين



للمسرحية عندي اعتبار خاص ، ذلك لأن الحوار — بما فيه من إيجاز وتركيز — هو القالب الأدبي القريب إلى سليقتي المحبة للنظام ، فالفن عندي نظام ، والنظام عندي هو الاقتصاد ، أى البيان بلا زيادة ولا نقصان ! . . . ربما كانت هذه الطبيعة عندي ميراثاً قديماً ، من أثر رواسب شخصيتنا العتيقة ، فالعرب كانوا يرون البلاغة في الإيجاز ، ومصر القديمة كانت ترى البراعة الفنية في البناء والتركيز ؛ فلهياكل الكبرى آية من آيات التصميم الهندسى الدقيق ، والتماثيل العظيمة آية من آيات التفكير المركز ببساطة في الحجر المجرد ! . . . من كل ذلك عنيت دائماً بقراءة أعلام الأدب المسرحى ، لا قراءة متعة ولذة واستطلاع فقط ، بل قراءة درس وتأمل وفحص ، فكنت أقضى الساعات أمام نص من النصوص ، أقلب فيه منقّباً عن أسرار تأليفه ومفاتيح تركيبه ، مستخلصاً — بنفسى ولنفسى — ملاحظاتى في طرائق التأليف المسرحى ، ذلك الفن العسير ، الذى أحبيته أيضاً لأنه عسير ، فما أزهى في شئ — زهدى في الفن السهل الذى لا يحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس ؛ وما أبجل شيئاً — تبجيلي للفن الذى يصمد ، كالصخرة في طريق الفنان ، فما يزال به يعالجه : بالصبر الطويل والكد المضنى ، حتى يفجر منه الماء السلسبيل ! . . .



عباس محمود العقاد

لماذا هويت القراءة؟



أول ما يخطر على البال - حين يوجه هذا السؤال إلى أحد مشتغل بالكتابة - أنه سيقول : إنني أهوى القراءة لأنني أهوى الكتابة ! ولكن الواقع أن الذي يقرأ ليكتب وكفى هو « موصل رسائل » ليس إلا . . . أو هو كاتب « بالتبعية » وليس كاتباً بالأصالة . فلو لم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتباً على الإطلاق ، ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئاً لما كان عنده شيء يقوله للقراء

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربي أنني قد أقرأ كتباً كثيرة لا أقصد الكتابة في موضوعاتها على الإطلاق ، وأذكر من ذلك أن أديباً زارني فوجد على مكتبي بعض المجلدات في غرائز الحشرات ، فقال مستغرباً : وما لك أنت وللحشرات ؟ .. إنك تكتب في الأدب وما إليه ، فأية علاقة

للحشرات بالشعر والنقد والاجتماع ؟
ولو شئت لأطلت في جوابه . ولكنى أردت أن أقتضب الكلام
بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب .
فقلت : نسيت أنني أكتب أيضاً في السياسة !
قال نعم : نسيت ، والحق معك ! .. فما يستغنى عن العلم بطبائع
الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين في هذه الأيام !
والحقيقة كما قلت مراراً أن الأحياء الدنيا هي « مسودات » الخلق
التي تترأى فيها نيات الخالق كما تترأى في النسخة المنقحة ، وقد تظهر
من « المسودة » أكثر ما تظهر بعد التنقيح . فإذا اطلع القارئ على كتاب
في الحشرات ، فليس من اللازم اللابز أن يطلع عليه ليكتب في موضوعه ،
ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ، ويعرف من
ثم كيف نشأ هذا الإحساس أو ذاك الإحساس ، فيتقرب بذلك من
صدق الحس وصدق التعبير ، ولو في غير هذا الموضوع .
كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ
في البيت المشهور :

وبن وعى التاريخ في صدره أضف أعماراً إلى عمره
فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشئ المهم إلا على اعتبار واحد ،
وهو أن يكون العمر المضاف مقداراً من الحياة لا مقداراً من السنين ،
أو مقداراً من مادة الحس والفكر والحيال ، لا مقداراً من أخبار الوقائع

وعدد السنين التي وقعت فيها . فإن ساعة من الحس والفكر والخيال
تساوي مائة سنة أو مئات من السنين ، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل
لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام .

* * *

كلا . . لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً
في تقدير الحساب . .

وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة
واحدة لا تكفيني ، ولا تحرك . كل ما في ضميري من بواعث الحركة
والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى
عمر الإنسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وإن كانت
لا تظليها بمقادير الحساب . .

فكرتك أنت فكرة واحدة . .

شعورك أنت شعور واحد . .

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك . .

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى ، أو لاقيت بشعورك شعوراً
آخر ، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك . . فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح
فكرتين ، أو أن الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خيالين . .
كلا . . وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر في القوة
والعمق والامتداد .

والمثل على ذلك ، محسوس في علم الحس والمشاهدة ، ومحسوس في عالم العطف والشعور .

ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرأتين فلا يرى إنساناً واحداً أو إنسانين اثنتين ، ولكنه يرى عشرات متلاحقين في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه .

وفي عالم العطف والشعور نبحت عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان فإذا هي عاطفة الحب المتبادل بين قلبين . . لماذا ؟ . . لأنهما لا يحسّان بالشيء الواحد كما يحسّ به سائر الناس . .

لا يحسّان به شيئاً ولا شيئين ، وإنما يحسّان به أضعافاً مضاعفة لا تزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحياء هكذا يصنع التقاء مرأتين ، وهكذا يصنع التقاء قلبين . . فكيف بالتقاء العشرات من المرأتى النفسية في نطاق واحد ؟

وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار ؟

إن الفكرة الواحدة جدول منفصل .

أما الأفكار المتلاقية فهي المحيط الذى تتجمع فيه الجداول جميعاً ، والفرق بينها وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف ، وبين الشط الضيق والموج المحصور .

وقد تختلف الموضوعات ظاهراً أو على حسب العناوين المصطلح عليها ، ولكنك إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب

الموضوعات من وراء العناوين .

أين غرائز الحشرات مثلا من فلسفة الأديان ؟

وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء ؟

وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة ؟

وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة ؟

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب

والشمال من الجنوب .

وحقيقة الأمر أنها كلها مادة حياة ، وكلها جداول تنبتق من ينبوع

واحد وتعود إليه .

غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة .

وفلسفة الأديان بحث في الحياة الخالدة الأبدية .

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبان من حياة إنسان في حالي

الحب والنقمة . .

ونهضة الأمم أو ثورتها هما جيبشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة

الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتازين سائر الناس .

وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول إلى

المحيط الكبير . .

ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أنني أبحث عن هذا كله ، أو

أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة .

ولكنني هويتها ونظرت في موضوعات ما أقرأ فلم أجد بينها من صلة
غير هذه الصلة الجامعة ، وهي التي تتقارب بها القراءة عن فراشة ،
والقراءة عن المعرى وشكسبير .

لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة .

ولكنني أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفيني . . ومهما يأكل
الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة ، ومهما يلبس فإنه لن
يلبس على غير جسد واحد ، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن
يحل في مكانين . ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع
الحيات في عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما
يتضاعف الشعور بالحلب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرتأتين .

* * *

والكتب المفضلة عندي هي كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ
الطبيعي ، وتراجم العظماء ، وكتب الشعر .

إنني أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت
تفترق في الظاهر ، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان .
فكتب فلسفة الدين تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت ،
وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة ،
وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، والشعر
هو ترجمان العواطف ، فإنني أفضل من الكتب كل ماله مساس بسر الحياة .

* * *

وتسألني ما هو سر الحياة ، فأقول على الإجمال إنني أعتقد أن الحياة أعم من الكون، وأن ما يرى جامداً من هذه الأكوان أو مجرداً من الحياة إن هو في نظري إلا أداة لإظهار الحياة في لون من الألوان أو قوة من القوى . والحياة شيء دائم أبدي أزلي ، لا بداية له ولا نهاية . .

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله عرفت سر الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا في هذا المحيط الذي لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا . والكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية . وهي النوافذ التي تطل على حقائق الحياة ، ولا تغني النوافذ عن النظر .

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية ، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام . وكذلك الإدراك القوي يستطيع أن يجد غذاء فكرياً في كل موضوع . وعندى أن التحديد في اختيار الكتب إنما هو كالتحديد في اختيار الطعام . وكلاهما لا يكون إلا لطفل في هذا الباب أو مريض ، فاقراً ما شئت تستفد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقي فيها من الموضوعات ، وإلا فاجعل القابلية حكماً لك فيما تختار لأن الجسم في الغالب يغذيه ما نشهيه .

ولا تغني الكتب عن تجارب الحياة ، ولا تغني التجارب عن الكتب ، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكي نفهم حق الفهم ، أما أن التجارب

لا تغنى عن الكتب ، فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور ، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين . .

* * *

ولا أظن أن هناك كتباً مكررة لأخرى ، لأنى أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناوها ألف كاتب أصبحت ألف فكرة ، ولم تعد فكرة واحدة . . ولهذا أتعهد أن أقرأ فى الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين ، وأشعر أن هذا أمتع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة . فثلاً أقرأ فى حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتباً وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذى وصف فى كتب الآخرين .

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية ، والأدبية ، والفلسفية ، فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة ، وتفيدنا المعارف المحدودة التى يشترك فيها جميع الناس ، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور ، وتكشف لنا عن الحياة والجمال ، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول ، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول .

وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان ، وتعريفه جوانب هذا العالم الذى يعيش فيه . وأنا أفضلها على هذا الترتيب : الأدبية ، فالفلسفية ، فالعلمية .

ولا يستطيع القارئ أن يحصر مقدار الفائدة التي يجنيها من كتاب ،
فرب كتاب يجتهد في قراءته كل الاجتهاد ، ثم لا يخرج منه بطائل ،
ورب كتاب يتصفحه تصفحاً ، ثم يترك في نفسه أثراً عميقاً يظهر في كل
رأى من آرائه ، وكل اتجاه من اتجاهات ذهنه ، فأنت لا تعرف حق
المعرفة « الطريقة » التي تضمن الفائدة التامة من قراءة الكتب ، ولكن
لعل أفضل ما يشار به - على الإجمال - هو ألا تكره نفسك على القراءة ،
وأن تدع الكتاب في اللحظة التي تشعر فيها بالفتور والاستئصال .

* * *

أما مقياس الكتاب المفيد فإنك تشينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك
على الإدراك والعمل وتذوق الحياة فإذا وجدت ذلك في كتاب ما ، كان
جديراً بالعناية والتقدير ، فإننا لا نعرف إلا لنعمل أو لنشعر ، أما المعرفة
التي لا عمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عديمها . وعلى هذا المقياس
تستطيع أن تفرق بين ما يصلح للثقافة والتهديب وما لا يصلح .

عباس محمود العقاد



أعزّ مكانٍ في الدُّنْيَا سُرْحُ سَابِحٍ
وخير جليسٍ في الزمان كتابُ
المتنبى



لم أجدُ لي وافيًا إلا الكتابا
 ليس بالواجد للصاحب عايا
 وكساني من حلى الفضل ثيابا
 وودادٌ لم يكلفني عتابا
 سَمَّ طالَ على الصمتِ وطابا
 وندامى ونقلى والشرابا
 مللاً يطوي الأحاديثَ اقتضابا
 تجد الإخوانَ صدقاً وكذابا
 وادخر في الصَّحْبِ والكتبِ اللبابا
 ورشيدُ الكتبِ يبيغك الصوابا

شوقي

أنا من بدّلَ بالكتبِ الصَّحَابا
 صاحبٌ إن عبته أولم تعب
 كلما أخلقتُه جدّني
 صحبةٌ لم أشكُ منها ريبةٌ
 ربّ ليلٍ لم تقصر فيه من
 كان من همّ نهارى راحتي
 إن يجدي يتحدّثُ أو يجدُ
 تجد الكتبَ على النقدِ كما
 فتخيرها كما تختارهُ
 صالحُ الإخوانِ يبيغك التقى

* * *

لما أنشئت المكتبة الأولى في مصر وضعت تحت حماية الآلهة وكتب
 على بابها : « هنا غذاء النفوس وطب العقول » .



الدكتور حسين فوزي

القراءة فن

توبيعات على موضوع ملغز



تصور أن يدلى إليك أصدقاء برغبة أن تكتب عن القراءة كفن .
فتخلو إلى نفسك لتفكر فيما تكتب .
ولقد فكرت فلم تتزاحم الأفكار ، ولكنها تداعت ، فكرة تستحضر
فكرة ، ورأى يتقضى رأياً .
كيف تكون القراءة فناً ، والقراءة وسيلة إلى غاية ، هي الفهم فالانفعال ،
أو هي الدرس فالعمل به ، أو هي مجرد المعرفة . والفن فيما يقرأ ، لا في
القراءة ذاتها .

هذا موضوع ملغز ، يحسن أن نبدأ فيه من المبتدأ .
« فصل القاف باب الهمزة » : « القافاة » أصوات غربان العراق .
(أعاذنا الله من نقيق ضفادع الريف ، وقافاة الغربان . فالأول مقلق
للراحة ، والثانية منذرة بالبين) . القثناء بالكسر والضم ، أو الخيار .

القندأو كغنغلو ، السبيء الغداء ، والسبيء الخلق ، والغليظ القصير ،
والجرىء المقدم . وأكثر ما يوصف به الحمل .

القرآن التنزيل . ومن هنا نبداً :

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) السجدة .
(يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) يس . (صَّ ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) ص .
(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الزمر . (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ
مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) غافر . (تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فصلت . (حَمَّ ، وَالْكِتَابِ
الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الزخرف . (حَمَّ ،
وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)
الدخان . (حَمَّ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الجاثية .
(حَمَّ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الأحقاف .
(قَ ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) ق . (الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ
الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن . (نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) القلم .
(أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، أقرَأَ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) العلق .

والمقرئ ، هو القراء (بالضم) أى الحسن القراءة للقرآن . من أقرأ
فلاناً ، جعله يقرأ ، فهو مقرئ .

فإذا فهمنا كلمة فن بمعناها الحديث ، لا تكون القراءة فنّاً إلا أن
يتلى ما يقرأ بتنغم ، كترتيل القرآن بالقراءات العشر . أو أن يتلى الشعر
والنثر قراءة بصوت الممثل أو الخطيب المدره ، فيكون هذا تمثيلاً أو
خطابة .

وثمة قارئ يطالع المدونة الموسيقية فى سره ، فيتصور النغمات
والإيقاع ، وقد يهمس أو ينبس بها . وهذا غير الأداء بغناء أو عزف .
ولكن كلمة فن فى اللغة تعنى أكثر من شىء واحد . يقول الفيروزابادى :
الفن : الحال والضرب من الشىء ، كالأفنون ، والجمع أفنان وفنون .
والفن ، الطرد والغبن والمطل والعناء والترتين .

وافتن ، أخذ فى فنون من القول . وفن الناس جعلهم فنوناً .
والتفنين التخليط ، وفى الثوب طرائق ليست من جنسه ، فتفنين
الثوب اختلاف نسجه برقة مكان وكثافة مكان .

ورجل مِفَنّ أى يأتى بالعجائب ، مؤنثه مَفنة .
أما المَفنة فهى العجوز السيئة الخلق .

وأخيراً : الفنان وهو الحمار الوحشى ، له فنون من العدو .
هذا كلام لا يقدم ولا يؤخر فيما نحن بسبيله . فلنفتح قاموس الجميع
اللغوى « المعجم الوسيط » :

الفن : جملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة ، وجملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال ، كالتصوير والموسيقى والشعر . ومهارة يحكمها الذوق والمواهب .
لعلنا نقرب من الغاية ، لا سيما أن « المعجم الوسيط » يفسر الكلمة في مدلولها الحديث .

فهذا قاموس « دارمستر » يقول :

- ١ - الفن وسيلة للتوفيق والنجاح في عمل ما .
- ٢ - طريقة في عمل الأشياء حسب القواعد ، كالفن الحربي ، والفنون والصناعات .

وجاء في موسوعة لاروس الكبيرة :

- ١ - قواعد صناعة أو حرفة .
- ٢ - الوسائل التي يستطيع المرء أن يثير بواسطتها الشعور بالجمال .
- ٣ - جهد الإنسان ، مقابلا لعمل الطبيعة . نقول : هذه مدينة حصينة بطبيعتها ، وتلك مدينة حصنها الإنسان بالطرق الفنية ، أي أجرى فيها فنون التحصينات .
- ٤ - المهارة ، في معنى قولنا : التفنن والشطارة .

فلنعد إلى موضوعنا : القراءة فن بمعنى أنها وسيلة للتوفيق والنجاح في عمل ما .

والقراءة فن لأن لها قواعد

ولا يمارى إنسان فى أن القراءة طريق سلطانى إلى ممارسة الحياة المتحضرة ، ولذلك اعتبرت القراءة والكتابة حجر الأساس فى التعليم . نعم إن التعليم يتم عن طريق السماع ، ولكن الكتابة والقراءة امتداد للاستماع . وقد استنبط « لويس براى » وسيلة لهذا الامتداد بطريقة الكتابة البارزة للمكفوفين ، يكتبون ويقرءون بها . ولقد كف بصر الأستاذ براى فى الثالثة من عمره .

ومع أن الدراسات كلها أقوى أثراً بالسماع ، إلا أن كتابة ما يسمع فى درس أو محاضرة ضرورى لتوكيد ما وعاه السامع ، يعود إليه كلما شاء . والتعليم الجامعى الصحيح لا يكتبنى بما يقوله المحاضر ويدونه الدارس فى أوراقه ، أويطبعه الأستاذ فى ملازمه ، بل يمون ويدعم بقراءة أكثر من كتاب فى موضوع المحاضرة ، مساعدة للطالب على فهم الموضوع ، ولتوسيع مداركه بما يتفق ومعنى العلم ، بل لتمكينه من مناقشة آراء الأستاذ مناقشة واعية ، حين يتحول استيعاب الطالب من مجرد استذكار إلى فهم واسع الأبعاد .

القراءة إذن هى سبيل المعرفة ، والاستفادة ، والتبصر .
ثم يستوقفنا هنا تعريف للفن ورد فى الطبعة الأخيرة من « إنسكلوبديا بريتانكا » يقول :

« الفن فى أساسه معناه القدرة والمهارة ويعرف من يكتبب الحذق فى عمل ما بأنه صانع فنان (أرتيزان) ، إذا كانت مهارته تهدف

في أهمها إلى غرض نفعي ، وفنان (آرتست) ، إذا كان هدفه التعبير عن الجمال » .

ولنا أن نفهم من هذا التعريف أن فن الآرتست نشاط جمالي خالص ، لا علاقة له بتحقيق فائدة عملية (ما عدا فن العمارة) ، فهل يمكن أن تكون القراءة فناً بهذا المعنى ؟

أى أن تكون خالصة لذاتها ، لا لتحضير رسالة علمية ، ولا للمذاكرة أو محاضرة ، أو لإعداد خطبة في موضوع ما ، إلى آخر ما هنالك من أهداف عملية للقراءة .

أى أن تكون القراءة حباً في القراءة ونهماً إلى الاطلاع ، وكلفاً بالمعرفة لذاتها . هل يوجد من الناس حقاً من يضيف إلى القراءة الرشيدة المفيدة ، مطالعة لله في الله ، يجد فيها القارئ لذة المستمع إلى الموسيقى ، أو من يتمتع البصر بمناظر الطبيعة ، أو بأثارها الفنية ؟

إذا صح هذا ، فقد بلغنا لب الحقيقة ، والقراءة هنا فن لا مرأ فيه . وقد صح هذا عندي ، لا كحقيقة خارجية عرفتها في غيري من الناس فحسب ، بل كحقيقة داخلية خبرتها بنفسى ، وهى أن العلاقة بين القارئ والكتاب علاقة محبة ووثام ، قد ترفع درجتها إلى حرارة الغرام .

* * *

كان لى في أيام الصبا صديق من أهل النعمة واليسار ، ألف بين

قلبينا. حب الكتب ، إلى غيرها من فنون التغيير والتشكيل .
وكان إذا اشترى كتاباً ، وجلسنا إليه ، فتحة ثم رفعه إلى قرب
أنفه ليشمه !

أثارت تلك الحركة استغرابي ، فأردت أن أفهم معناها بالممارسة
بعض الوقت . فإذا للكتب الجديدة عيرٌ خاصٌ محبب للنفس ، قد
تفقدته لتكتسب روائح أخرى... ترابية في القاهرة، أو زنبخة في الإسكندرية.
ورائحة الكتب تختلف تبعاً لنوع ورقها مزوجاً بحبر طباعتها : قارن بين
الكتب الصفراء ، والكتب المطبوعة على ورق فاخر . وفي سنوات ما بعد
الحرب الأخيرة ، عبرت بأنني رائحة الكتب الأجنبية في الطبقات الرخيصة
(كتب الجيب وما إليها) ، مصدرها فيما أظن مادة البلاستيك اللامعة
التي تكسو أغلفتها .

المهم أن حركة صديقي الغربية كشفت لي عن إحساس « القارئ
الفنان » بالميل الشديد إلى الكتاب ، كمجرد كتاب ، ونهني إلى أني ،
ولو لم أك أشم كتبى الجديدة ، إلا أني ألقبها ، وأتأملها من قرب ومن
بعد ، كعوبها وحروفها المذهبة ، أتحسس ورقها ، وأقرأ صفحاتها ،
أقف بفصل هنا وفصل هناك ، وأطيل النظر إلى الفهرست ، والصور .
ثم كان لي صديق بمدينة تولوز - المرحوم الكاتب حسن صادق -
يهوى الكتب في طباعتها الفاخرة ، وتجليدها المترف . وكان إلى هذا
قارئاً عكوفاً . لم يكن يبخل على بإعارتي ما شئت منها ، فتعلمت أشياء

خاصة بأصناف الورق الغالى ، كالقولان ، والهولاند والجاپون إلخ ،
وبقيمة ما يعرف بالطبعة الأصلية ، وتبلغ أسعارها مبالغ خيالية فى كتب
القرون السالفة . والغالب أن يصدر منها عدد من النسخ المرقمة من واحد
إلى عشرة ، مثلا ، فى أفخر أوراقها ، ومن ١١ إلى ١٠٠ لما يتلو ذلك من
الورق الممتاز ، وهكذا حتى رقم ٣٠٠ أو ٤٠٠ .

ولقد تكفلت بنشر أول كتاب لى ، فاخترت ورقاً جيداً للنص ،
ورق كوشيه للصور ، وذهبت إلى خطاط كبير ليكتب لى صيغة التقديم
وعنوانات الكتاب وفصوله . آثرت لها الخط الفارسى الذى عشقته منذ
نعومة أظفارى . وفى كتابى الثانى « حديث السندباد القديم » قدت
الخطاط إلى مسجدى قلاون والناصر محمد ، وطلبت منه أن يكتب العنوان
واسم المؤلف بالخط المملوكى الذى زينت به الأفاريز الخارجية والداخلية .
وكان صديقى المرحوم محمود طاهر لاشين ، رائد القصة المصرية
القصيرة ، يعجب من هذا السرف فأقول له هازلا : هبى أصرف على
زفة ختان ولد لى !

والحقيقة كامنة فى شغفى بالكتب كأسفار فى ذاتها ، بعد أن نما
ذلك الشغف من أثر مضامينها ، وما أدين به لها .

ويبدو لى أن الاسترسال فى هذا العشق المحرود يبعدنا عن القراءة ذاتها
كفن ، فى بعض ما تعنيه هذه الكلمة ، وهو : قواعد صناعة أو حرفه
(لاروس الكبير) . فاذا يكون فى القراءة فى هذا المعنى ؟

أوله التذوق ، وهو حاسة أساسية لكل تأثر بالفن . هاوى القراءة ذواقة قبل كل شيء ، لا مجرد قارئٍ لضرورة أو فائدة . إنه لا يقتنى كتاباً في تفسير الأحلام ، أو في الطب الطبيعي ، أو في اليوجا ، أو في رياضة الجسم . فالقراءة عند الذواقة فن ، وعند الآخر طلاب فائدة . والناس كلهم يقرعون للفائدة . أما القارئ الفنان – إلى استهذافه المنفعة كبقية الناس – فهو من يقرأ حباً في القراءة ، وكفى .

* * *

إخالي أقرب مما أبحث عنه منذ البداية ، فلأتمسّن المعونة من ذكرياتي الأولى في القراءة ، خارج الكتب المدرسية .

أذكر أن حبي للقراءة أثارته كتب بمكتبة والدي لا علاقة لها بالرياضة والهندسة المعمارية ، ومكعبات الهدم والردم : مجلات باسم « التنكيث والتبكيث » ، و « المقتطف » – في أعدادها الأولى بالحروف المسلوخة ، و « مجلة المجلات » ، و « الهلال » . وكتاب « بدائع الزهور في أخبار الدهور » المنسوب إلى ابن إياس (وهو غير كتابه التاريخي العظيم) ، يقص علينا أساطير خلق الكون ، السهل فيه والحزن ، جباله وأنهاره وبحاره وسماواته ، فخلق الملائكة ، فالجن ، ثم الإنسان .

وكتاب « عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره » لبزرك بن شهريار الناخداه ، وهو يحتوي على مغامرات البحريين العرب والفرس فيما يشبه حكايات السندباد . وقصة « تغريبة نبي هلال » ، و « الظاهر بيبرس » ،

و « الأميرة ذات الهمة » ، و « حمزة البهلوان » . والكتاب الذين أجرى
عبراني مدواراً : « نور العين في مشهد الحسين » .

ثم « ألف ليلة وليلة » ولا أنسى منه قصة « الجمال والسبع
بنات » ، وما حدث في بدايتها من مداعبة مكشوفة بين الجمال والبنات
حول بركة ماء في فناء منزلهن . وقصة « الحسن البصرى » وسفره بحثاً عن
زوجته التي هجرته وطارت إلى بلادها بجزائر واق الواق . وقصة « القلندر
الثالث » ، و « قمر الزمان ابن الملك شهرمان » ، صاحب جزائر خالदान ،
وما جرى له مع معشوقته الأميرة بدور بنت الملك الفيور ، صاحب السبعة
بحور » ، و « أنس الوجود مع الورد في الأكام » ذلك « الإيديل » الشعري
الذي يفيض صباية .

وأخيراً تلك الرحلات البحرية العجيبة يروي أخبارها تاجر ثرى في
بغداد اسمه السندباد ، في جمع من أصحابه ، وقد انضم إليهم حمال
استضافه الرحالة في يوم شديد القيظ ، عند ما عرف أنه سميه ، وقال له
« إذن أنت السندباد البرى ، وأنا السندباد البحرى » .

ثم القصص التي تجرى وقائعها تحت سطح البحور العميقة ، مثل
قصة « عبد الله البرى ، وعبد الله البحرى » (راجع تحليلي لكل هذا
القصص البحرى في كتاب « حديث السندباد القديم ») .

وأذكر أول سفر إلى الريف مع جدتي لزيارة أسرتها ، ولم يكن ريفاً
نائياً (قرية أوسيم) ، وكيف حملت إليه قصص « الفرسان الثلاثة »

و «روكامبول» ، وما إليها من القصص المترجم في مطالع هذا القرن .
وقرب المرافقة عثرت في مكتبة والدي على ذلك الكتاب الرومانتيكي
القح «الأجنحة المتكسرة» لجبران خليل جبران .

أى أننى انتقلت إلى المرحلة الثانوية ولوعماً بالقراءة ، وإذا بى أجد
بين يدي جارى بالمدرسة - وكان ابن ناظر النظار (رئيس الوزراء)
في ذلك الحين - كتباً إنجليزية بجلدة حمراء تتصدر غلافها صور ملونة ،
ولها عنوان عام هو «لحات من بلاد كثيرة» .

فأبديت للوالد رغبتى في اقتناء مثل هذه الكتب ، واصطحبني إلى
مكتبة الألماني «ديمر» بمبنى فندق «شبرد» القديم . وخرجت أظير فرحاً
بكتاب عن «الصين» ، وآخر عن «الهند» . وفي مرات تالية حملت
الترجمة الإنجليزية لكتب إسكندر دوماس : «الفرسان الثلاثة» و «بعد
عشرين سنة» و «الملكة مارجو» و «الكونت مونت كريستو» في
طبعة رخيصة مصورة (نلسون) .

وفي الثانية الثانوية قرأت قصة «وردة» في ترجمتها الإنجليزية ، ثم
عثرت على ترجمتها العربية لمحمد مسعود ، كتب تحت عنوانها «رواية
تمثل أخلاق وعادات المصريين في عهد رعمسيس الثاني ، وترسم للقارئ
نظام حكومتهم ، وما وصلوا إليه من التقدم في العلوم والمعارف . أبرزها
من الآثار القديمة وأوزاق البردى الدكتور جورج إيبيرس الألماني» .
وفي الثالثة الثانوية بدأ غراي بالمرح ، مما دفعني إلى قراءة الأدب

التمثيلي في كل ما ترجم إلى العربية حينذاك .

وفي السنة الرابعة كان تقرير قصيدة وليم موريس الشعرية « حياة وموت جيسون » مفتاح الأدب اليوناني ، وتوفرى على اقتناء سلسلة كتب « أفريمان » بدءاً بالقاموس الكلاسيكي ، « والإلياذة » ، و « الأوديسية » ، فالمسرح الإغريقي كله .

ويمكن القول بأن القراءة تحولت عندي من الغرام العارم ، إلى الاطلاع المنظم ، يتابع خطوياً بعينها . وساعدني كتالوج « أفريمان » على معرفة أعلام الكتب في آداب العالم ، فلم أنتقل إلى الدراسة العالية حتى كنت قد قطعت شوطاً بعيداً في قراءة تلك المؤلفات العظيمة ، كما كنت قد بدأت دراسة اللغة الفرنسية لأطالع آدابها في نصوصها .

ولا أزمع أني كنت أفهم كل ما أقرأ ، إنما المهم أنني كنت أتابع غالباً خطة ، وأسلك طريقاً سويماً إلى المعرفة . فما إن بدأنا في المرحلة الثانوية دراسة الأدب العربي ، حتى عولت على قراءته من أوله ، أعنى من الشعر الجاهلي ، ولم أتوقف إلا عند توقف الحضارة العربية .

والحق أني الآن مندهش ، ولا أكاد أصدق أنني في حياتي قرأت كل تلك الكتب . والأعجب أن إحساسي في شيخوختي هو أنني لم أتعد نصف مرحلة الاطلاع !

ولقد وجدت في مكتبة والدي كتاباً يغلب على الظن أنه دخل البيت بطريق الخطأ . عرفت من عنوانه أنه نص (ليبرتو) رواية « عابدة » لشاعر

إيطالى اسمه كيسلانزوني ، وفهمت من الإشارات والرموز بداخله أنه
يحتوى على موسيقى فردى .

هذا المجلد ما زال فى مكتبتى ، وما يرحت أذكر كيف كنت أجلس
إليه حائراً ، أقلب صفحاته معجباً بتلك الرموز التى لا أفهم منها حرفاً ،
كما لا أفهم إلا قليلا من النص الإيطالى المكتوب تحت الموسيقى . ولو أنى
كنت أعرف الرواية من نصها العربى - وهو باق عندى إلى اليوم - كما
شهدتها من جوقة الشيخ سلامة حجازى .

إلى أن حل اليوم السعيد جداً فى حياتى ، الذى تمكنت فيه من فك
تلك الرموز الموسيقية ، وأخذت أقتنى مدونات الموسيقى الرفيعة ، فأضفت
متعة جديدة للقراءة ، وهى إمكان مطالعة تلك المدونات . وهى لذة
لا يعرفها إلا دارسو الموسيقى ، عندما يعردون من سماع حفل سمفونى ، أو
أوبرا ، ليراجعوا ما سمعوه فى مدوناتهم ، وكأنهم يقرءون فى كتاب مفتوح .
أو حين يتابعون أداء موسيقياً مسجلاً ، وهم يقلبون صفحات مدونته .

* * *

أهذا ما عناه الأصدقاء الذين طلبوا إلى الكتابة فى موضوع : القراءة
فن ؟

أم كانوا يقصدون إلى أن أعطى دروساً فى الموضوع ، فأرسم خطة
حكيمه للقراءة الرشيدة ؟

ولكنى لا أومن بالخطط التى يرسمها لى الآخرون . وأحسب الناس

في هذا على شاكلي .

ثم إنني لا أعرف طريقة لتحييب القراءة إلى من ليس لديه استعداد لها .
وبعد كل ما قلت ، فإنني غير متأكد من أن القراءة فن ، إنما هي
يقيناً داء ، دواؤه نفسه . إنها نوع من الإدمان الخطير قد يتحمل الضحية
في سبيلها كل حرمان .

ما أكثر ما فرحت في حياتي باقتناء لعبة ، أو دراجة ، أو جهاز
تصوير أو تسجيل ! وما أحب إلى أن أشتري كساء أو حذاء أو ربطة
رقبة تعجبني في فترينة !

ومع ذلك ، كم أحب أن يصدقني القارئ وأنا أختم هذا الفصل
بزعم أنني لا أعرف فرحة تعادل فرحي باقتناء الكتب . وأحب الفترينات
إلى هي ما يوضع في واجهات المكتبات .

فرحة لم تضعف من سنوات الحدائث حتى أوائل الشيخوخة ، وما أظنها
إلا في ازدياد على كمر السنين .

أعود إلى البيت بربطة كتب ، أو مدونات موسيقية — وهذه كنت
أطلب أكثرها من الخارج — فلا أنقلب إلى فراشي حتى أكون قد محضتها
واحدًا واحدًا ، كالبخيل بين دنانيه . أشاهد صورها ، أو أتمثل ألحانها ،
أطلع بعض أولها ، وبعض أوسطها ، وبعض آخرها ، لإشباع فضولي ،
ولتطمئن نفسي على حسن اختياري ، وتواعداً على لقاء ممتع طويل .
قد تكون كتباً في التاريخ العام ، أو في السياسة ، أو الفنون ، أو

الاجتماع ، أو العلوم ، أو الجماليات ، أو التراجم ، أو الرحلات .
 ماذا يهم ؟ إنني الحمار يحمل أسفاراً ، يجب حمله ، ويعني ما فيه !
 لا أهاب سوى كتب الفلسفة الأصيلة ، فلم أجسر على الاقتراب
 من إيمانويل كانت ، وسبينوزا وهيديجر ، وهوسرل و كارل ياسبرز . حتى
 بول سارتر لا أطلع له سوى ما يقرؤه كل الناس ، فما فتئت مع شديد
 الأسف حرفوشاً أمياً في الفلسفة .

وفي الاقتصاد الحديث ، غير التقليدي ، كأني الأطرش في الزفة .
 حصنت نفسي بالصبر والجلد فطالعت مختصراً وافياً لكتاب كارل ماركس
 « رأس المال » ، وقد فهمته بعد عناء نص نص !
 ولكني لا أعرف معنى اليأس في شئون القراءة ، نشأت على قصة
 للأطفال الإنجليز تقول حكمتها : حاول من جديد .
 وهي النصيحة التي أسديها للقراء : لا تصدّ تلك صعوبة عن المضي
 في قراءة كتاب عظيم . أعد قراءته ، وسترى أنك بعد فهمه ستطالعه
 مثنى وثلاث ورباع .

حسين فوزي



إن جامعة هذه الأيام الحقيقية هي مجموع الكتب .

كرليل



الْبَاءُ مَأْمُونُونَ غِيْبًا وَمَشْهَدًا
وَرَأْيًا وَتَأْدِيًّا وَبِحَدِّهَا وَسُؤْدًا
وَلَا تَخْتَشِي مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدًا
وَلِنْ قَلْتِ أَحْيَاءُ فَلَسْتَ مَفْتَدًا
شاعر قديم

لنا جلساءٌ ما نعملُ حديثهم
يفيدوننا من علمهم علم ماضى
فلا غيبةٌ نخشى ولا سوء عشرة
فإن قلت أمواتٌ فلم تبد أمرهم



الدكتور السعيد مصطفى السعيد

القراءة والثقافة



من الأقوال الماثورة أن أول العلم الصمت والثاني الاستماع والثالث الحفظ والرابع العقل وخامس مراتبه النشر.

وإذا نظر إلى الصمت بوصفه شرطاً لازماً للاستماع صح القول بأن أول العلم الاستماع .

ولقد قيل هذا في وقت كان الاستماع فيه هو وسيلة العلم الأساسية ، ولا نقول الوحيدة ، إذ كان إلى جانبه دائماً وسائل أخرى لتحصيل العلم والمعرفة بما يدركه الإنسان ببصره أو حواسه الأخرى . كما قيل في وقت كان العلم فيه وصفاً يطلق على كل ما يمكن تحصيله من نواحي المعرفة . ولقد تغير الوضع في زماننا سواء في معنى العلم ، أم في وسائل تحصيله . أما العلم فإن كان في الحقيقة وصفاً لكل ما يحصله الإنسان من وجوه المعرفة ، فقد أصبح له في الاصطلاح معنى أضيق ، بما يجعله مرادفاً

على نحو ما لعبارة « المعرفة المتخصصة » في فرع أو أكثر من فروع المعرفة بمعناها الشامل . وهو ربما يكون له معنى أضيق من هذا إذا ما رُئي تفريع وجوه المعرفة المتخصصة إلى علوم طبيعية وعلوم إنسانية ، فيطلق على الأولى العلوم والثانية الإنسانيات . وهذه التفريعات لا تعيننا في هذا المقام إلا في كونها تشير إلى معنى من تحصيل المعرفة يختلف في نطاقه ومدلوله عن معنى « الثقافة » ، وإن كان داخلاً فيها من وجه .

ذلك أن الثقافة أعم وأشمل ، فهي تعني الإلمام بنواحٍ مختلفة من المعارف ، فيما يحيط بالشخص من بيئة ، وما جرى فيه تاريخه ، وما تجرى عليه أمور العالم الذي يعيش فيه ، إلى غير ذلك من نواحي المعرفة التي لا يمكن حصرها في نطاق محدود ولا تقتضي التخصص الدقيق في فرع بعينه . ومن أجل ذلك ، جاز أن يجمع الفرد الواحد بين العلم والثقافة ، بأن يكون عالماً متخصصاً في مادة ، مثقفاً في الجملة بالإضافة إلى ذلك . وإلى جانب هذا يوجد المتخصص في ناحية من العلم ، وربما يبلغ فيه شأواً بعيداً ، وهو مع ذلك مقطوع الصلة بما خرج عن تخصصه من معارف ، فيضيق أفقه وينحصر فيما تخصص فيه ولا يقال له إنه مثقف .

على أن الثقافة بمعناها هذا تحتل هي الأخرى تفرعاً ، على قدر ما تتصل به من نواحٍ ومجالات خاصة ، فيقال الثقافة القانونية ، والثقافة السياسية ، والثقافة التاريخية إلخ . وهنا يختلط معنى العلم بمعنى الثقافة . ويكون الفرق بينهما فرق قدر وعمق ، أما المجال فتتفق . فإذا تعددت

المجالات ولم تنحصر في ناحية معينة سميت « ثقافة عامة » .

* * *

وإذا كان العلم مطلوباً في مجالاته الخاصة ، فإن الثقافة مطلوبة في الحملة . وربما تكون ألزم للجمهور في مجتمعاتنا المعاصر . وهي من حيث لزومها درجات ؛ فمنها ما يكون واجباً ومنها ما هو دون ذلك .

والثقافة الواجبة هي ما تكون لازمة للمرء في حياته في المجتمع الذي يعيش فيه ، من حيث إلمامه بنظمه وإدراكه لحقوقه وواجباته ، وما هو مباح له وما هو ممنوع منه ، إلى غير ذلك من صور المعرفة بما يجب الإنسان المسئولية أمام السلطات أو اللوم من مواطنيه . ولعل هذا الوجوب هو الذي بنى عليه المشرعون في كل مكان المبدأ الذي يقضى بأن الإنسان لا يعذر بجهله بقوانين البلاد التي يعيش فيها . على أن العلم في هذا المجال لا يمكن أن يكون إلا علماً في الحملة ، وهو ما يحقق معنى الثقافة ، وإلا دخلنا في مجال التخصص الذي لا يطلب إلا من قلة .

وإلى جانب هذا توجد الثقافة العامة في مختلف النواحي ، وهي التي تكون شخصية الفرد وتسمو بها وتميزه بين أقرانه . وعلى قدر زيادة حصيلته من الثقافة يكون سموه بين أقرانه وفي بيئته أدبياً بل مادياً أيضاً في كثير من الأحوال .

وانتشار الثقافة وذيوها في بلد من البلاد عامل جوهري في تقدمه ، لأنها تزيد من وعي الجمهور بإدراك الفرد منه حقوقه وواجباته نحو وطنه

ونفسه ومواطنيه ، وهو ما يؤدي إلى سلامة نظام الحكم واستقراره ، بما يترتب على ذلك من رقي البلد في الحملة ورفعة شأنه بين الدول ، وهذه ناحية سياسية . والمثقف أقدر على تدبير شئون نفسه ورفع مستواه من حيث أسلوب الحياة والعناية بنفسه وأهله بما يؤدي إلى تحسين الحياة الاجتماعية ورفع مستواها ، وهذه ناحية اجتماعية . وهو في عمله أقدر على فهم واجبه ، وإدراك مزايا الإلتقان والحدودة ، بما يؤدي إلى رفع المستوى في الصناعة والزراعة وغيرهما من نواحي النشاط ، وهذه ناحية اقتصادية . وغير ذلك كثير مما لا يتسع المجال للدخول في تفصيله .

ومن أجل ما تقدم صح أن يقال إنه على قدر ثقافة الفرد يكون قدره في مجتمعه وبين أقرانه ، وعلى قدر ذبوع الثقافة وارتفاع مستواها في بلد يكون علو شأنه ورفقه في مدارج الحضارة .

* * *

وسائل تحصيل الثقافة متعددة ، فالإنسان يتثقف بما يدركه بحواسه ومن أولها حاسة السمع بما يتلقاه سماعاً من الغير عرضاً أو تلقيناً . ثم إنه يتثقف بما يدركه بحاسة البصر فيما يراه بعينه من المرئيات ، فهو يرى البناء الجميل وكيف أقيم فيحصل ثقافة ، والطريق المنظم للمرور يموج بالبشر ووسائل المواصلات فيحصل ثقافة ، وواجهات المحال التجارية تزخر بالسلع والمعروضات وقد نسقت في أساليب مختلفة فيضيف إلى حصيلته من الثقافة ، فإذا ذهب إلى دار العرض السينائي رأى بعينه

ما لم يكن هناك سبيل لرؤيته من بلاد ومناظر ، أو إدراكه من أساليب الحياة في أرض الله الواسعة ، وكل هذا ثقافة يضيفها إلى ما سبق أن حصله . وإلى جانب هذا كله ، وأهم منه وأكبر أثراً ، ما يحصله الإنسان من القراءة .

* * *

والقراءة هي بالقياس إلى وسائل تحصيل الثقافة من أحدثها عهداً . فهي لم توجد إلا باختراع الكتابة ، وكان ذلك في مرحلة متقدمة في تاريخ البشرية لم يكن الإنسان فيها مجرداً من كل ثقافة ، بل كان لديه ما حصله بوسائله الخلقية من سمع وبصر على ما تقدم .

ولقد بقيت القراءة مدة طويلة وسيلة محدودة الأثر ، مقصورة على عدد ضئيل من الناس ، وذلك قبل أن يصنع الإنسان الورق ، ثم بعد أن صنعه وقبل أن يبتدع الطباعة . فلقد كانت الكتب تنسخ في أعداد قليلة ، الأمر الذي جعل تكلفتها عالية تعز على جمهور الناس ولا يقلد عليها إلا قلة من الموسرين . وبالإضافة إلى ذلك كان تداول الكتاب من مكان إلى آخر محدوداً لصعوبة المواصلات .

وتبدل الحال باختراع الطباعة إذ أصبح من المستطاع طبع الكتاب في مئات النسخ ثم في آلافها وأكثر من ذلك على ما هو معروف ومشاهد . فقلبت تكلفة طبع الكتب ، فأصبحت ميسرة لجمهور القارئ . كما أن تقدم طرق المواصلات جعل نقل الكتاب وذيوعه في أطراف الأرض أمراً

ميسوراً يتم في وقت قصير وبنفقة قليلة .

وكان اختراع الطباعة وزيادة إمكانياتها ، وتقدم المواصلات ، داعين لظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفاً من قبل هو الصحف والدوريات على اختلاف أنواعها ، تعرض بأثمان زهيدة وفي أشكال جذابة تستهوى القارئ والمشاهد ، فكملت الصورة وأصبحت القراءة ، بحق ، الوسيلة الأولى في تحصيل الثقافة وإذاعتها في مختلف المستويات ، وبخاصة بعد أن انتشر التعليم وأصبح الإلمام بالقراءة والكتابة أمراً جوهرياً في تأهيل المواطنين ، تحرص عليه الحكومات وتعمل على تحقيقه ، بل تعاقب على الإعراض عنه أو التراخي فيه .

وباكتمال الصورة على هذا الوجه أصبح من الميسور أن يجمع الإنسان في داره ، في بضعة رفوف ، مجموعات من الكتب تمثل مجموعة المعارف التي تضطلع بها كلية جامعية بل جامعة بأسرها ، يرجع إليها في أي وقت ويستخلص منها ما يشاء بغير ما حاجة إلى درس أو تلقين .

ولقد تقدمت أساليب الطباعة وزادت المطبوعات دقة ورونقاً . إذ أدرك الطابعون والناشرون أن دقة الطبع وجمال التنسيق وحسن العرض أدعى إلى قبول المطبوع لدى القارئ . وكان نتيجة ذلك ما نشاهده الآن من إتقان في طبع الكتب وتجميلها بالصور والرسم التوضيحية مما يجيبها إلى جمهور القارئين . وهي في ذلك شأنها شأن الكلام المسموع ، فكلما كان الصوت هادئاً حلواً على الأذن كان أدعى إلى الإنصات

إليه مما لو كان خشناً أجشّ تستثقله الأذن وينفر منه السامع .

* * *

ولقد ترتب على ذبوع الطباعة ورخص تكلفتها أن فاضت المطبوعات بأنواع من الأفكار والآراء والمعلومات على مختلف المستويات ؛ من القيم الرصين إلى الغث التافه ، ومن المفيد الموجه إلى الخطر الذي يدعو إلى الانحراف . بل إن منها ما يحوى معلومات خاطئة مضللة أقحمت فيه عن قصد أو عن غير قصد . ومن أجل هذا نشأت مشكلتان تستأهلان العناية بل تستوجبان المواجهة . أولاهما كيف يختار القارئ كتابه ؟ والثانية هل هناك محل لفرض رقابة من نوع ما على طبع الكتب وغيرها من المطبوعات ، وعلى إذاعتها ، لتجنب الآثار الضارة التي تخشى من كتاب أو مطبوع بعينه ؟

وقبل أن أعرض لأية المشكلتين أود أن أقول إنه ما من معلومات تزداد يمكن أن يقال إنها شر في ذاتها ، فليس هناك خير محض ولا شر محض ، وإنما يكون المطبوع ، أو بالأصح ما حواه ، مضرّاً بالقياس إلى شخص أو أشخاص معينين ، أو في زمان معين ، أو في مكان معين . بمعنى أن الكتاب ربما يكون ملائماً لسن دون سن ، أو لمستوى ثقافى دون آخر ، أو في بيئة دون أخرى . فالكتب التي تعرض لشئون الجنس ربما تكون غير مرغوبة أو ضارة للمراهقين ، ولكنها في الوقت نفسه تكون نافعة بل لازمة لغيرهم . والكتب التي تبحث في أصول الديانات

والمقائد ربما تكون غير ملائمة لمحدودي الثقافة فتبرز لإيمانهم ، وهي مع ذلك جديرة بأن تلقى عناية وبحثاً من الرسّاخين في العلم والمفكرين . والكتب التي تبحث في نقد نظم الحكم وأساليب السياسة ربما تكون غير ملائمة لمن يأخذون الأمور بظواهرها فيندفعون وراء أفكار وأفعال ما كانوا ليتجهوا إليها لو أنهم كانوا أعمق ثقافة وأدق بصراً ، وهي مع هذا نافعة بل لازمة لمن يعنى بشئون الحكم وسياسة الشعوب . . وهكذا .

* * *

ونعود لموضوع اختيار القارئ لكتابه ، وهذه مسألة ترجع للقارئ نفسه. إذا كان على قدر كاف من الثقافة فإنه يقدر على أن يختار كتابه بنفسه ، ومن اليسير عليه أن يحكم على كتاب حكماً في الجملة من قراءة سريعة لبعض ما جاء به وأحياناً من مطالعة فهرست موضوعاته . ويوجهه في ذلك مزاجه الشخصي أو الغاية التي يتوخاها إن كان يبحث عن موضوع معين . أما من كان دون ذلك من الثقافة فعليه أن يسترشد بمن هو أقدر منه ، وليس في ذلك ما يعيب لأن الساعي إلى المعرفة مشكور دائماً . وفي الصفحات الأدبية التي تنشرها بعض الصحف والدوريات ، وتعرض فيها إلى الحديث من الكتب ، وفي استعراض المؤلفات الجليدة في الدوريات التي تعنى بذلك ، وهي للأسف قليلة العدد في بلادنا ، ما يعين في ذلك إلى حد كبير .

* * *

أما موضوع الرقابة فهو موضوع شائك . ولست أقصد بالرقابة

تلك التي تفرضها السلطات في الدولة في الظروف الاستثنائية كحالة الحرب ونحوها ، فهذه تتصل بمصالح الدولة العليا وأمنها ، وهي على أية حال مؤقتة تنهى بانتهاء مرجبها .

والرقابة التي أقصدها هي تلك التي يضطلع بها الآباء والمربون ، وهذه مسألة لا ينبغي أن تهمل . ومن الواجب إجراؤها بلباقة وحرص . ويحسن تجنب التصريح بالنهي ، فإن هذا كثيراً ما يدفع إلى تحدى النصيح ، وهو عامل نفسى ، فالنفس كثيراً ما تتجه إلى تجريبه ما تنهى عنه واجتلاء سره المجهول . وللدولة رقابة من هذا النوع تجريبها في حدود القوانين بما تتخذ من إجراءات لمنع نشر الكتب والمطبوعات التي تذيب الأفكار الهدامة ، أو تدعو إلى الإخلال بأوضاع الدولة ونظمها ، أو إلى إفساد أفكار الشباب ودفعهم إلى الانحراف . وأسلوب الدولة في ذلك تتضمنه قوانين النشر وقانون العقوبات . ولا اعتراض على هذا من حيث المبدأ ، وكل ما يمكن أن يقال في شأنه إن هذه الرقابة لا ينبغي أن تكون شديدة متمتة فتحد من حرية الفكر وتوقه ، كما لا ينبغي أن تكون فضفاضة إلى الحد الذي تصبح فيه صورية فتضيع فائدتها ويبقى وزرها . وتحديد القدر الملائم في هذا المجال يجب أن يعهد به إلى أشخاص يتوخى في اختيارهم أن يكونوا هم أنفسهم على قدر من الثقافة يمكنهم من الاضطلاع بهذه المستولية الخطيرة فيحسنون القيام بها .

السعيد مصطفى السعيد



الكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشى ظرفاً . . . وبستان يحمل
 في رذن ، وروضة تنقل في حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء...
 ولا أعلم رقيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية ولا
 أقل جنانية ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ولا أقل تصلفاً وتكلفاً من كتاب...
 ولا أعلم قريناً أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ولا
 أخف مؤونة ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى من
 كتاب . . .

ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان
 وجوده يجمع من التداوير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة
 ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب
 الحكيمة وأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم
 البائدة ما يجمع لك الكتاب .

الجاحظ



الدكتور السيد أبو النجا

القراءة ميداً حسابي



قد يبدو لأول وهلة في هذا العنوان شيء من التناقض . فالقراءة الحرة
الرجحة لا يمكن أن تشد إلى الحساب الجامد الذي يقرر أن $2 = 1 + 1$ ثم يرفض المناقشة في هذه الحقيقة . لكن معنى القراءة من الناحية العلمية
أنها عمل عقلي وانفعالي ، فهي تقتضي التعرف على الكلمات ، وفهم
معناها ، والإحساس بما يقدمه كاتبها فيها من توجيهات ، ثم تقييم هذه
التوجيهات قبل وضعها موضع التطبيق . وهذا التفسير يؤلف بين القراءة
والعمل . فالقراءة هكذا أداة لاصطياد المعلومات وإثارة الإحساسات .
وهذه تتفاعل في نفس القارئ مع تجاربه القائمة ، فتؤثر في سلوكه الذهني
والإنساني ، وتصبح قوة تحركه لينطلق في الحياة وفقاً لسلوكه الجديد ،
فيأتي من التصرفات ما يعود بالخير أو بالشر على حياته وحياة المجتمع
الذي يعيش فيه . ومن هنا تصبح القراءة وسيلة للتنمية أو للهدم ، فلا بد

من الرقابة العلمية عليها ، ومتابعة آثارها على مختلف الطبقات ، وقياس نتائجها بالأرقام في حياة الأفراد : رأيت إذن أنه لا تناقض بينها في النهاية وبين الحساب ؟

إن القراءة من شأنها أن تسهم إيجاباً في تطوير الشخص فتزيد دقته في تقصي المعلومات والحكم على الأشياء ، وتؤثر في اتجاهاته ومستواه الخلقى ، ومعتقداته وتصرفاته ، ولكنها أيضاً قد تسهم سلباً في تطويره فتقوده إلى أعمال ضارة ، ولذلك ينظر المصلحون في قلق إلى ما ينشر عن الجنس والجريمة : وقد أصبحت القراءة اليوم من أدوات الدعاية الفعالة ، ولذلك عنيت الحكومات بتعويد شعوبها التفكير فيما تقرأ ، وتقييم مصادره : وقد وضعت الحكومة الأمريكية بين سنتي ١٩٣٠ ، ١٩٥٠ دراسات لتحسين فن القراءة ، وقامت المؤسسات الصناعية الكبيرة بعد ذلك بوضع دراسات خاصة بموظفيها لتعليمهم هذا الفن .

المراحل الأربع لتعلم القراءة :

أظهرت الأبحاث أن تحصيلات التلاميذ من القراءة تختلف اختلافاً كبيراً ، فبعضهم يصل في المرحلة الأولى إلى ما لا يصل إليه سواه إلا في المرحلة التالية أو التي بعدها .

والمرحلة الأولى هي التي يبدأ فيها الطفل في تكوين ملكاته العقلية والاجتماعية والعاطفية واللغوية ، حتى إذا وصل في عمره إلى ست سنوات بدأ

يتم بالكتاب وبالكلمة المطبوعة فيدخل المرحلة الثانية .
 وفي هذه المرحلة يتعرف بنظره على نحو ثلثمائة كلمة ، ويزداد اهتمامه
 بالقراءة لأنه يبدأ يفكر فيما يقرأ . ومع تزايد سنه يتعلم كيف يستقل بنفسه
 في القراءة فيدخل المرحلة الثالثة .

وفي هذه المرحلة تزداد سرعته في القراءة الصامتة ، وفي فهم ما يقرأ ،
 ويزداد عدد الكلمات التي يتعرف عليها بنظره إلى ألف وخمسمائة أو أثنى
 كلمة ، ثم يتعلم القراءة بصوت مسموع ، ويكتسب المهارات اللازمة
 للتحديث بما يجمعه من قراءاته ، كما يستخدم القراءة لإشباع حب
 الاستطلاع في نفسه ، ولجني المعلومات من العلوم المختلفة .

بقيت المرحلة الرابعة . ومن خصائصها أن تكون القراءة باهتمام أكبر
 وتذوق أحسن . وخلال هذه المرحلة تنقى القدرات السابقة وترهف ،
 ويتسع مدى التعرف على الكلمات والمعاني ، وتنمو القدرة على التفسير .
 وبزيادة الحصيلة من المعرفة تتأكد القدرة على التقويم الصحيح ، والاستفادة
 من القراءة في تكييف الاتجاهات والسلوك . إن القراءة في هذه المرحلة
 تزداد اتساعاً وعمقاً فيصبح القارئ - كما يقول William. S. Gray -

ناضجاً Mature

القراءة والاهتمامات :

أثبتت الدراسة أن الأطفال يظهرون في مدارجهم الأولى اهتماماً

بالحيوانات، وميلاً إلى الحكايات عن الأطفال الآخرين الذين هم في سنهم . وقبيل المراهقة يظهر الأولاد ميلاً إلى قراءة المغامرات وطرق القيام بها والهوايات وعبادة الأبطال . أما البنات فيظهرن اهتماماً بالبيت والحياة المنزلية ، وبعضهن يملن إلى قراءة المغامرات . وقد لوحظ أن البنات يحببن كتب الأولاد ، على حين أن الأولاد لا يحبون كتب البنات .

وفي سن المراهقة يبدي الأولاد اهتماماً بالمجهول وبالألعاب الرياضية وذواحي الترفيه ، في حين يقبل البنات على الروايات الغرامية والقصص التي تعالج مشاكلهن قبل سن العشرين .

أما اهتمامات البالغين فهي متنوعة ومعقدة .

وقد ذكر Dogulas Waples and Ralf W. Tyler أنهما بحثا الميول للقراءة عند البالغين - على مستوى دولي - فوجدوا أنها تختلف باختلاف الجنس والسن والبيئة والوظيفة وعدد سنوات الدراسة ولم تتفق الميول إلا في اتجاهين اثنين هما الاتجاهات الدولية والنظافة الشخصية ، كما لاحظنا أن سهولة الوصول إلى المواد المقرؤة من أهم دوافع الإقبال عليها ، ولذلك تقرأ الجرائد والمجلات أكثر مما تقرأ الكتب :

أبحاث اليونسكو :

الشخص يتعلم كيف يقرأ ، ثم يقرأ كيف يتعلم . وقد قام اليونسكو ببحث عن الأمية فيمن تزيد سنهم على ١٥ سنة ، فنتين أن ما بين

٤٣٪ و ٤٥٪ من سكان العالم أميون . وهم يبلغون سبعمائة مليون نسمة ،
توزيعهم على القارات كما يلي :

- ٧٤٪ في آسيا
 - ١٥٪ في إفريقيا .
 - ٦٪ في الأمريكتين
 - ٥٪ في أوروبا .
-
- ٪١٠٠

ويتضح من تقرير اليونسكو أن أقل البلاد في نسبة الأمية هي النمسا والدانمارك وفنلندا وألمانيا وأيرلندا والنرويج والسويد وسويسرا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا حيث تروح في كل منها بين ١٪ و ٢٪ .

ثم اليابان وتشكوسلوفاكيا وكندا حيث تروح بين ٢٪ و ٣٪ . ثم الولايات المتحدة وبرمودا وبلجيكا وفرنسا حيث تروح بين ٣٪ و ٤٪ . والدول التي فيها أكبر نسبة من الأمية (بين ٩٥٪ و ٩٩٪) هي أنجولا وإرتريا والحبشة وإفريقيا الفرنسية الاستوائية وإفريقيا الغربية الفرنسية وموزنيق وإفريقيا الجنوبية الغربية وإفريقيا الغربية الإسبانية وعدن وأفغانستان والبلاد السعودية واليمن .

وقد جاء في تقرير اليونسكو أن الأمي حكماً Functional illiterate هو الذي يقرأ كالأطفال الذين قضوا أربع سنوات فقط في المدرسة ،

وغير الأسمى هو الذى حصل من المهارات فى القراءة على مقدار يمكنه من متابعة العمل فى مختلف الأنشطة :

معنى هذه الأرقام :

يتضح من هذه الأرقام أن هناك ترابطاً واضحاً بين كون الشعب متقدماً وكونه قارئاً ، وقد يقال إن الشعب تقدم أولاً ثم بدأ يقرأ . ولكن هذا القول يجرى مخالفاً لمنطق الأشياء ؛ إذ المعقول أن الشعوب تتعلم ، ثم تسخر العلم فى تحقيق التقدم .

إن القراءة تنمى الفرد ، والفرد ينمى المجتمع ، ولن تكون تنمية بغير قراءة . فالقراءة هى جهاز الاستقبال الذى يفتحه القارئ على الدنيا فيخترق بعينه ما فيها من جديد . والفرد الذى لا يقرأ يوقف التيار الفكرى الذى يربطه بالعالم ، ويحكم على نفسه بالعزلة ، وعلى عقله بالحمود ، وعلى ملكاته بالتحجر .

إن القراءة هى التى علمت الناس كيف يخلقون ذقونهم بالشفرات ويغسلون أسنانهم بالمعجون والفرشاة ، ويقطرون الدواء فى عيونهم إذا أصابها التهاب أو ألم بها غبار . وهى أيضاً التى نشرت بينهم عادات التدخين وشرب الخمر وسباق الخيل وغشيان الملاهى . لقد أصبحت القراءة معلم الجمهور الأول ، حتى ليتعذر تصور الحياة بدونها . فكيف يعرف الناس أن السير على اليمين مطلوب إذا لم يقرءوا أن هذا يحقق مصلحة

شخصية وعامة ؟ وكيف يدركون القطارات والسفن والطائرات إذا لم يقرءوا مواعيد قيامها ؟ بل كيف يتعاونون مع الهيئة الحاكمة ومع بعضهم بعضاً إذا لم يقرءوا ويفهموا ما هو مطلوب منهم في هذا الشأن ؟ إن الحكومات لا تستطيع أن تحصل من شعوبها على التلبينات المطلوبة إذا لم تكن هذه الشعوب قارئة ، حتى ليصح القول بأن تكوين الدول صعب التصور بغير قراءة .

والذي يقرأ يقوم بعملية لازمة لزيادة كفايته الشخصية على حل مشاكل الحياة . وهو يضمن من زيادة كفايته على تحسين عمله ، فيلتي من التقدير ما يفتح له أبواب النجاح .

إن القراءة تمتاز في هذا على معلم الفصل : فهي تعلم بالجملة وهو يعلم بالمفروق (القطاعي) : وهي لا تفرض نفسها على طلبتها وهم جمهور الشعب ، وإنما تقدم لهم الصحيفة أو الكتاب المختار كلما اشتاقت نفوسهم إليه ، في حين يحدد المعلم موضوع الدرس ووقته ومكانه ، ثم يصبه على طريقته الخاصة في آذان التلاميذ ، ويفرض عليهم الإنصات ساعة من الزمان أو أكثر وهم جالوس على مقعد خشبي .

وكما يكون البيع بالجملة أرخص منه بالمفروق يكون التعليم بالقراءة أرخص منه بالتدريس . وإذا كانت المدرسة لا تستغنى عن الكتاب ، فإن الكتاب قد يستغنى عنها : وكبار المفكرين من أمثال عباس محمود العقاد وكامل الشناوى لم يستمدوا من المدرسة إلا أقل القليل ، ثم بقي

الكتاب في أيديهم يؤاخيهم ويشترك معهم في أفراحهم وآسبهم ، بل يدخل معهم إلى بيوتهم ومخادعهم . وبهذه الصداقة التي نشأت بينه وبينهم وترعرعت على طول الزمان ، تغلغل الكتاب برسائله في أعماق نفوسهم فسار في خباياها وغيّر في مكنونها .

لقد كانت القراءة في عهد اليونان سبيلاً إلى الترف الذهني والأحاديث الجلداية ، فأصبحت اليوم منبعاً للمعرفة ، منها نتعلم كيف نسعف المريض ، ونصلح السيارة ، ونربي الطفل ، ونسوق السلع . . .
إن القراءة هي التي تأخذ بأيدينا اليوم إلى إنتاج أكبر ، وحياة أفضل .
كانت مبدأ ثقافياً ، فأصبحت أيضاً مبدأ حسابياً .

السيد أبو النجما



هذا كتاب لو يباع بوزنه ذهباً لكان البائع المغبوناً
أو ما من الخسران أنك آخذ ذهباً وتركُ جوهرأ مكنونا
شاعر قديم



عادل الغضبان

الكتاب



إن الكتاب في تحديده المادى هو مجمع الحروف والكلمات وفي تحديده المعنوى هو الوسيط بين ذهنين ينقل من هذا إلى ذلك عصارة الفكر وخففة القلب ويجعل بين الكاتب والقارئ مشاركة روحية يختلف أثرها باختلاف قوة طرفيها .

وشأن الكتاب في ذلك شأن اللوح الفى تتباين قيمته الفنية بتباين العيون التى تراه والنفوس التى تستوعبه .

وكل ما نقل لإيتنا معنى من المعانى أو صورة من صور الجمال أو هزّ فينا كامن الإحساس والعاطفة يصحّ أن يسمى كتاباً . فالشفة المضطربة عند الغضب أو الحجل والعين الفصيحة النظرات عند الحب أو الكراهية كتاب نطالع فيه سطوراً خطتها القلب من وحيه ثم إن مجالى الطبيعة المتمثلة فى روض أنيق ونهر دافق وصبح بسّام وليل كالح

حروف وكلمات تنقل إلينا ما انطوى تحتها من معان وأسرار .
فأقدم الكتب إذن هو هذا الكون الذى ألفه الخالق وما برح الناس
على مدى الأزمان يقرءون سطوره ويتملّون معانيه ويتلقّون عنه الوحي
يسمو بأرواحهم إلى عبادة ربّهم الذى علّم بالقلم .
وشاء الله بعد ذلك أن يوحى إلى عباده بآيات الهداية والرشاد فكان
الكتاب مجموعة وصاياه إليهم خطّوها على ألواح من الحجر وعلى رقّ
الحيوان وأوراق البردى ثم خطّوها على هذه الصفحات كلها علومهم وآدابهم
الإنسانية . ولعل أقدم الكتب التى صنعها البشر ووصلت إلينا أخبارها
كتب الأموات عند المصريين وكتب مصاير روما .
وتأنق القوم على مدى العصور بالكتب فاستخدموها سجلات
للشرف وأشهرها سجلّ مدينة البندقية المتضمن أسماء نبلائها وأعيانها
غير أن الكتب كالبلاد والعباد فهى تسعد وتشتقى حسبما تكتبه لها السماء
من سعادة حظ أو شقاوة جدّ فقد كان مصير هذا السجلّ الإحراق
علانية بعد خمسة قرون كان فيها معجم السادة والأشراف .
ولقد كان للكتاب شأن وأى شأن فى جميع العصور فهو حرز
لا يتداوله إلا الكهنة وخذّام المعابد والهياكل ثم هو شىء نفيس لا يقننيه
إلا الأمراء والرّعاء ثم هو أداة للتثقيف والتّهذيب تزخر به المكتبات العامة
والخاصة يحتفى به طلاب العلم أولئك الذين تضع الملائكة أجنحتها لهم .
فهذا «كسرى أنوشروان» يقع له خبر كتاب «كليلة ودمنة» فلا يقرّ له قرار

حتى يبعث « برزويه » إلى بلاد الهند لاستخراج الكتاب من خزائنها وإقراره في خزائن « فارس » . وهذا « المهلب » يقول لبنيه : يا بني إذا وقفت في الأسواق فلا تقفوا إلا على من يبيع السلاح أو يبيع الكتب . وهذا « الجاحظ » يصف « محمد بن إسحق » أمير بغداد يوم دخل إليه وهو معزول ورآه جالساً في خزانة كتبه بين الكتب والدفاتر فيقول : ما رأيته أهيب منه في تلك الحال . وهذا « صاحب بن عباد » يسافر من بلد إلى بلد ومعه حمل ثلاثين جملاً من الكتب وعندما يعرف أن « سيف الدولة » دفع ألف دينار ثمن كتاب الأغاني يستقل الثمن . وهذا « المتنبى » يشهد بأن خير جليس في الزمان كتاب . وهذا أميران من أمراء الغرب يبرمان معاهدة بينهما ويشترط أحدهما فيها على الآخر أن يظفر منه بمخطوط من مخطوطات المؤرخ « تيت ليف » . وهذا « شوقي » يقول في أحد مطالعه :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافيّاً إلا الكتابا
ولئن وقف بعض علماء اللغة عند هذه الباء الداخلة على غير المتروك
لقد آثر « شوقي » الكتب على الصحاب إذ وجدها لا تنقض عهدها
ولا تخضر ذمامها . هذا والمفكرون في الشرق والغرب قد أجمعوا على عدّ
الكتاب صديقاً وافيّاً ظريف العشرة نافع الحديث مأمون الغيبة . أما « مرسيل
بروست » فيرى أن الكتاب أفضل من الصديق وأنفع من حديث الحكماء
ذلك بأن السكون الذي يحيط بنا عند القراءة يحفظ علينا تفكيرنا قوياً

سليماً بعيداً من مؤثرات المتحدّث فالسكون إذن ضرورى لكل ما يثير
 فينا الفتنة والتفكير والإعجاب كما أن اللوح الفنى لا نستطيع إدراك
 أسراره إلا إذا تأملناه منفردين .

والحديث عن الكتاب يجرّ إلى الحديث عن القراءة . فالقراءة فى
 عرف « فاليرى » رذيلة لا يعاقب عليها وفى عرف « ديكارت » حديث
 مع شرفاء القرون الماضية وفى عرف « أندريه موروا » فن من الفنون .
 ولكلّ من هذه التعريفات وجاهتها فذيلة القراءة كما بسطها « موروا »
 فى كتابه « من فنون الحياة » متوافرة فى أولئك الذين يدفعهم الجشع إلى
 قراءة كل ما تقع عليه أنظارهم لا يريدون بها الوقوف على الآراء والأفكار
 بل على صفوف من الكلمات تخفى عنهم حقيقة العالم وحقيقة نفوسهم
 كمدخن الأفيون لا يلتمس من وراء تلخينه إلا الهرب من عالم الحقيقة
 إلى عالم الأوهام والأحلام . على أن قراءة المتعة هى التى يتفقد فيها القارئ
 صور الجمال ونزوات العاطفة وغريب الحوادث فى حين أن قراءة الفائدة
 هى التى يبحث فيها القارئ عن مستكمالات ثقافته وعناصر تهذيبه .

ومهما أوقى الإنسان من عبقرية فقد تجفّ نضارتها فيه إن لم يتعهدها
 برىّ القراءة وقد يماً حفل الرومان بالقراءة العلنية فكان العبد يقرأ لسيدة
 بصوت عال وكان العالم أو الأديب إذا فرغ من تأليف كتاب من
 الكتب قرأه على نخبة من قومه قبل نشره وبقيت هذه العادة مستحكمة
 طول القرن الأول بعد الميلاد وقيل مثل هذا فى حوليات « زهير بن

أبي سُلمى» وجرى مثله في أندية الغرب الأدبية . ولئن كانت القراءة فنّاً من الفنون إنها كذلك مصدر الإيحاء إلى الفن في متاحف « اللوفر » و « بركسل » و « لكسمبرج » ألواح فنية لأهم الرسّامين تمثل القراءة والقارئين .

إن الكتاب العربي اليوم على تنوع موضوعاته واختلاف قيمه أصبح في متناول كل قارئ والشعوب العربية على تفاوت عدد المتعلمين فيها قد أقبلت على القراءة إقبالاً سيزداد يوماً بعد يوم والمؤلفين العرب نشاطهم في التأليف مشهود ملموس ودور النشر قديمها وحديثها ملحوظة العناية بنشر الكتب فلم يبق إلا أن يعرف القارئ كيف يختار قراءاته معرفته اختيار أصدقائه .

والشعر ولا شك صديق حميم فهو أنيس الروح ونديم القلب وجناح الفكر يجلو للقارئ مواطن السحر والجمال ويحرك فيه كوامن الشعور ويرقى بفكره على أجنحة الخيال إلى مصادر الإلهام فيسير به في شعابه المتألقة بالنور والضياء متنقلاً من روعة إلى روعة ومن عجب إلى عجب .

وللشعر مفاخر ومآثر ألمنا ببعضها في حديث متخيّل أجريناه بين الشعر والقارئ ونظمناه في القصيدة التالية :

الشعر والقارئ

تجلى الشعر للقارئ ذات مساء في
صورة غادة حسناء متشحة بالنور
فجری بينهما هذا الحوار :

الشعر

يَا صَدِيقِي وَصِنُو نَفْسِي سَلَامًا

مُعَطَّرَ النَّشْرِ

جُزْتُ فِي مَهْبِطِي إِلَيْكَ الْغَمَامَا

وَمَعْقِلِ النَّسْرِ

أَنَا رُوحُ النَّهْيِ وَرَاحُ النَّدَامِي

وَرَوْضَةُ الْفِكْرِ

إِنْ أَرَدْتَ الْحَيَاةَ أَحْلَى ابْتِسَامَا

مِنْ بَسْمَةِ الْفَجْرِ

فَاخْسُ مِنْ رُوحِ كَرَمَتِي الْإِلَهَامَا

وَاسْكُرْ بِإِلَا خَمْرِ

تَخَى فِي غِبْطَةٍ وَتَسَعُدُ عُمْرَا

القارى

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ . إِنْ أَجَبْتِ سُؤَالَ
بَدَّدْتِ أَوْهَامِي
هَلْ تَكُونِينَ فِي سَعِيدِ اللَّيَالِي
طَيْفًا لِأَخْلَامِي
صَوْرَتُهُ لِيَلْعَيْنِ كَفُّ الْخَيَالِ
فِي فَنِّ رَسَامِ
فَنَزَّاهِي بِحُسْنِهِ الْمُتَلَالِي
وَرُوحِهِ السَّامِي
فَاتِنَا مُهَجَّتِي بِسِحْرِ الْجَمَالِ
وَمَالِنَا جَامِي
مِنْ شَهِيِّ الْحَدِيثِ خَمْرًا وَعِطْرًا

الشعر

أَنَا فِي عَالَمِ الصَّبَابَةِ نَجْوَى
لِلْعَاشِيَةِ الصَّبُّ
يَتَغَنَّى بِي كَلِمًا نَالَ حُظْوَى
فِي دَوْلَةِ الْحُبِّ
فَإِذَا خَابَ فِي هَوَاهُ وَأَهْوَى
فَرِيْسَةَ الْكَرْبِ
يَضْدَعُ اللَّيْلَ نَانِحًا يَتَلَوَى
مُحَطَّمِ الْقَلْبِ
رُحْتَ أَنْسِيهِ كُلَّ هَمٍّ وَبَلَوَى
بِمَنْطِقِي الْعَذْبِ
وَأَحِيلُ الْجَوَى سُلُوكًا وَصَبْرًا

القارئ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا نَعِيمَ الْقُلُوبِ
 وَنُزْهَةَ النَّفْسِ
 وَالْأَرِيْبُ الْعَلِيمُ سِرِّ الْغُيُوبِ
 فِي السَّعْدِ وَالنَّحْسِ
 تَسْتَثِيرِينَ عِنْدَ وَضَلِ الْحَبِيبِ
 بِلَالِ الْأُنْسِ
 وَتُعْزِينَ كُلَّ عَانٍ كَثِيبِ
 يَعْيشُ فِي يَأْسِ
 أَنْتِ مَنْ أَنْتِ أَيُّ رُوحٍ عَجِيبِ
 فِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
 حَلِّ بُرْدَيْكَ يَخْلُبُ اللَّبَّ سِحْرًا

الشعر

أَنَا مَجَلَى الطَّبِيعَةِ الْفَتَانَةِ
وَحُسْنِهَا الْبَاهِرِ
أَعَكِسُ الْحُسْنَ لَاحٍ فِي كُلِّ بَانَةٍ
وَمَشْهَدٍ سَاحِرٍ
وَصَبَاحٍ صَحَا يَبُثُّ جُمَانَةَ
فَوْقَ الشَّرَى الزَّاهِرِ
وَسَمَاءٍ بِشُهِبِهَا مُزْدَانَهُ
وَبَدْرِهَا السَّاهِرِ
صُورٌ مِنْ جِنَانِهِ سُبْحَانَهُ
تَسْبِي نُهَى النَّاطِرِ
وَتَزِينُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضَ طُرًّا

القارى

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا رَيْيَّةُ هَلَّا
 أَفْصَحْتَ عَنِ حَالِكِ
 طَارَ كَالظَّنِّ خَاطِرِي مُسْتَقِيلاً
 جَنَاحَ أَقْوَالِكِ
 يَتَمَلَّى الضُّيَاءَ يَهْطِلُ هَطْلًا
 مِنْ فَيْضِ سَلْسَالِكِ
 وَيَرَى الْبَدْرَ فِي حَدِيثِكِ هَلَّا
 يَمْحُو الدُّجَا الْحَالِكِ
 فَكَأَنِّي بِرُوحِ حَوَاءَ حَلًّا
 جَمِيلَ أَوْصَالِكِ
 بَجْتَلِي رَوْضَةً وَيَرْتَادُ نَهْرًا

الشعر

أَنَا يَا صَاحِبِ مُنْذُ فَجْرِ الزَّمَانِ
 صَنَاجَةُ الْمَجْدِ
 عِشْتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالرُّعِيَانِ
 خَفَاةَ الْبَنْدِ
 وَاسْتَمَدَّتْ إِلَهُامَهَا الْحَاثِي
 مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ
 كَانَ شَدْوَى يَوْمِ الْوَعَى وَالطَّعَانِ
 أَلْهُوِيَةَ الْأُسْدِ
 وَلَدَى النَّصْرِ كَانَ سِحْرُ بِيَانِي
 قَيْشَارَةَ السُّعْدِ
 يَمَلَأُ السَّمْعَ وَالْجَوَانِحَ بِشِرَا

القارئ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا سَمَاءَ الْفَخَّارِ
وَكَوْكَبَ الْحُسْنِ
أَخَذَتْ عَنْ مَسَائِرِ الْأَحْرَارِ
رَوَائِعَ الْفَنِّ
وَتَبَارَتْ وَجَوْقَةَ الْأَطْيَارِ
فِي مِنْبَرِ الْغُضَنِ
وَمَشَتْ فِي مَدَارِجِ الْأَقْمَارِ
خِذْنَا إِلَى خِذِنِ
مَنْ تَكُونِينَ أَنْتِ أَيُّ مَنَارِ
جَلَاكِ فِي جَفْنِي
آيَةٌ أَسْبَعَتْ عَلَى الْفَجْرِ فَمَجْرًا

الشعر

أَنَا فِي مَسْبَحِ النُّجُومِ جَنَاحُ
مُحَلَّقٌ سَابِغٌ
حَوَمَتْ حَوْلَ مَوْكِبِي الْأَرْوَاحُ
حَوَمَ الْقَطَا السَّارِحُ
يَضْطَفِينِي الْأَمِيرُ وَالْفَلَّاحُ
وَالْعَامِلُ الْكَادِحُ
فَمَعَانِي بَيْنَهُمُ الْوَاخُ
تُنْتَلَى بِلَا سَارِحُ
هِيَ لِلْقَلْبِ مُشْعَةٌ وَمَرَّاحُ
وَسَهْمَةٌ الرَّابِغُ
وَهِيَ وَخِي سَمَا بِهِ الْفَنُّ قَدْرًا

القارى

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا رَبَّاطَ الْعَشِيرِ
 وَزِينَةَ الْمَجْمَعِ
 تَتَهَادَيْنَ بَيْنَ عَالِي الْقُصُورِ
 وَالْكُؤُخِ وَالْمَرْبَعِ
 وَتُنَادِينَ كُلَّ سَامِي الشُّعُورِ
 فَيُرْهِفُ الْمَسْمَعِ
 لِلنَّخْفِيِّينَ فِي حَنَائِي الصُّدُورِ
 لِلَّهِمَّ وَالْمَطْمَعِ
 وَتَعُودِينَ مِنْهُ خَيْرَ سَفِيرِ
 أَفَادَ وَاسْتَوْدَعِ
 جَنَبَاتِ النُّفُوسِ حِلْمًا وَبِرًّا

الشعر

أَنَا بِنْتُ الْعَلَاءِ وَالْمَدَنِيَّةِ
تُزْهِى بِهَا الْأَوْطَانَ
زِنْتُ تَاجَ الْإِغْرِيْقِ فِي الْوَثْنِيَّةِ
وَعَزُّ بِي الرُّومَانَ
وَبَنَى الْعُرْبُ لِي قِبَاباً عَلَيْهِ
مِنْ خَالِصِ الْعَقِيَانِ
بَيْنَ شَرْقِيَّةٍ وَأَنْدَلُسِيَّةِ
لَمْ يَخُوَهَا إِيْوَانَ
وَحَبَابِي الْعَصْرُ الْجَدِيدُ حُلِيَّةِ
وَصَاغَ لِي التَّيْجَانَ
ضَاءَ فِيهَا الْحِجَى عَقِيْقاً وَدُرّاً

القارئ

رَبَّةَ الْمُعْجَزَاتِ بِاللهِ قُولِي
مَنْ أَنْتِ فِي النَّاسِ
هَذِهِ النَّفْسُ فِيكَ نَفْسُ رَسُولٍ
حُفَّتْ بِأَقْبَاسِ
تَغْمُرِينَ الْقُلُوبَ فِي كُلِّ جِيلٍ
بِمَوْجِ إِحْسَاسِ
وَتَقُودِينَهَا إِلَى التَّرْتِيلِ
يَلْحَنُ أَقْدَاسِ
وَتُحَلِّينَ كُلَّ قَفَرٍ سَبِيلِ
بِالْوَرْدِ وَالْأَسِ
فَأَبِينِي كَفَاكَ سِرًّا وَسْتَرًا

الشعر

أَنَا فِي الْأَرْضِ صَوْتُ أَهْلِ السَّمَاءِ
 مَا أَقْدَسَ الْمُضَدَّرُ
 أَسْتَقِي الْوَحْيَ مِنْ مَعِينِ الضِّيَاءِ
 وَضَفَّةِ الْكَوْثَرِ
 ثُمَّ أُوْحِي بِهِ إِلَى الْعُظَمَاءِ
 مِنْ سَاكِنِي عِبْقَرِ
 فِي سَنَا النَّجْمِ فِي شَجَا الْوَرَقَاءِ
 فِي نَعْمَةِ الْمِزْهَرِ
 فِي حَفِيفِ الرَّبَا وَشَدْوِ الْمَاءِ
 بِالْمَوْكِبِ الْأَخْضَرِ
 لِمَنِّي الشُّعْلَةُ الْمُسَمَّاءُ شِعْرًا
 عَارِلِ الْفَضِيانِ



الدكتور جمال الدين العطيبي

القراءة والرأى العام



الصلة وثيقة بين القراءة والرأى العام . فالرأى العام الذى يعبر عن فكرة تسيطر على جماعة معينة ويحس أفرادها بأن هذه الفكرة تربطهم جميعاً ، يتولد نتيجة القراءة .

وهذا الرأى العام كان قائماً فى جميع العصور : كان معروفاً فى أثينا القديمة وفى روما حيث كان يعبر عنه بصوت الشعب . وفى المسرحية المعروفة « هنرى الرابع » أشار شكسبير على لسان هنرى الرابع إلى الرأى العام الذى ساعده على الوصول إلى العرش : والفيلسوف لوك اعتبر قانون الرأى أو السمعة « قانوناً للمجتمع مثل القانون الإلهى والقانون المدنى . غير أن العصر الحديث بما استحدث من وسائل فنية للاتصال بالجمهير قد قوى فيه سلطان الرأى العام .

ورغم أن القراءة لم تعد هى الوسيلة الوحيدة لتكوين الرأى العام ،

فإلى جانبها نشأت الوسائل الحديثة للاتصال بالجمهور—مثل الإذاعة والتلفزيون والسينما— فإنها ما زالت أخطر هذه الوسائل . ويزداد تأثيرها بالقدر الذى تمحى به الأمية .

والكتاب بوجه خاص ، لا يزال أقوى وسائل التأثير . فالكتاب يبقى بين يدى صاحبه ، يطالعه على مهل وفى تودة وتأمل . وهو لا يفترق عنه إلا وقد نشأت علاقة إنسانية بينه وبين الكاتب . إنه ليس كالكلمة المذاعة أو الصورة المرئية التى لا يمكن الاحتفاظ بها . إن الكلمة المقروءة تبقى دائماً مع القارئ ، يتلوها ويعود إليها مردداً لها ، والإثارة فيها لا تفلح مثلما قد تفلح فى الكلمة التى تذاع أو فى الصورة التى تعرض ، لأنها تخاطب فى روية عقلاً هادئاً متأملاً يمكنه أن يميز فيها يطالعه بين الحقائق والأراجيف وبين الرأى الحر والرأى الفاسد ، وبين الدراسة الموضوعية والعرض المغرض . ولذلك فإن الكلمة المذاعة أو الصورة المرئية لا يمكن بمفردها أن تخلق رأياً . إنها قد تثير الجموع وقد تعبر عن نزعات فطرية مثل الخوف أو الشفقة أو القسوة . ولكن الجموع التى تستمع إليها أو تراها لا تصدر عنها أحكام يمكن تنظيمها وربطها وخلق رأى محدد منها . بل هناك عواطف تموج قد تثور اليوم ، ثم تعود فهدأ غداً .

أما الكتاب فهو يخاطب عقل القارئ . إن صاحب الرأى لا يمكن أن يفرض رأيه بالقوة ولا تفلح فيه الإثارة ولكنه يدعو إلى قبوله بالمنطق

والإقناع . فالقارئ حينما يجلس إلى الكتاب يتحول إلى ناقد يقبل وجوه المشكلة المطروحة عليه . ولقد يكون رأى القارئ من صنع الكاتب ، غير أنه لا يفقد استقلاله عن الكاتب : بل إنه كثيراً ما يفرض ذوقه عليه .

إن جمهور الكاتب قد يكون أقل انتشاراً ولكنه أكثر ثباتاً . وأفراده وإن كانوا لا يعرفون بعضهم ، فإن مجموعة من الأفكار التى يبشر بها الكاتب قد تجمع بينهم ، والرأى يجعل من هؤلاء القراء جمهوراً .
فالقراءة هى الوسيلة التى يتكون بها الرأى العام ، والكتاب أداة لتوجيه هذا الرأى العام . فهو ينبه ويحرك مشاعره ويفرض عليه منطقته :

فكتاب دار المعارف يصل إلى قرائه بسرعة فى أى مكان فى العالم فيولد نوعاً من التوافق فى الأفكار . ففي عصر الجماهير الذى نعيش فيه لا يمكن إغفال أهمية الدور الذى يقوم به الكتاب فى توجيه الرأى العام . ومن هنا ينشأ ما يمكن تسميته بفن العلاقات الإنسانية حيث يلعب الاتصال والإقناع دوراً بارزاً .

وإذا كانت زيادة توزيع الكتاب هى التى تخلق الرأى وتدعمه وتمده إلى آفاق عالمية ، وإذا كان الرأى العام هو الجهاز الذى تقاس به القيم الاجتماعية ، فإن هذا الجهاز يجب أن يكون مصنوعاً من العوامل المصطنعة . ومن هنا تأتى مسئولية الكاتب والتزامه . إن قارئه قد يتحول

إلى ناقد له : كما تأتي مسئولية الناشر : إن الناشر ليس مجرد طابع أو موزع ، وليس الربح هو هدفه : ولكن الربح هو المقياس الذى يقاس به نجاح الكتاب ويحصى به جمهور قرائه : فلا قيمة لرأى لا يجيد قارئاً . ولكن يجب ألا يفهم من ذلك أن جمهور أى كاتب هو كل جمهور القراء . فلا يشترط فى الرأى ليكون عاماً أن يكون رأى مجموع الشعب : بل إن الرأى العام قد يتولد بين فئة متخصصة : ولا يقدر اقتصار القراءة على هذه الفئة فى قيمة الكتاب أو الرأى :

ولكن الرأى العام قد يتسع فيشمل أكبر عدد من القراء . . . بل إنه قد يصبح رأياً عاماً عالمياً : وفى هذه الحالة يخاطب الكتاب القارئ العادى ولا يتطلب التخصص . إن قارئه قد يكون عاملاً أو فلاحاً أو جندياً أو مثقفاً أو طالباً أو ربّة بيت . . . وفى ميدانى الثقافة العامة والثقافة المتخصصة ، يلعب الكتاب دوراً هاماً فى خلق الرأى العام : وإذا كنا لا يمكن أن نتصور الرأى العام إلا بين القراء البالغين ، فيجب ألا نغفل عن أهمية القراءة بالنسبة للصغار والناشئة : إن الصغير يتقبل ما يطلعه على أنه من المسلّمات وينفعل له ويتأثر به . وهو فى سنه الصغيرة لا يمكنه أن يصدر حكماً على سلامة الرأى الذى يعرض عليه :

ويكبر الصغير وتنمو مداركه ، ولكن الآراء والأفكار والحكايات الصغيرة التى طالعها فى طفولته تظل عالقة فى ذهنه ، وهى بذلك تلعب

دوراً هاماً بطريقة غير مباشرة في تكوين الرأي العام للجيل الجديد . ومن هنا كانت مسئولية كتاب الأطفال ، أشد خطورة في التزام قيم المجتمع والمبادئ التي يسعى إلى تحقيقها .
إن الكتاب الرشيد الملتزم يولد رأياً عاماً رشيداً ملتزماً . إنه لا ينحرف ولا يخلق ولا يفرق : بل إنه يناقش وينقد في موضوعية جادة .

جمال الدين العطيبي



كان الحسن بن علي بن أبي طالب يقول لابنيه وبنى أخيه : تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه في بيوتكم .

* * *

إنني أفضل أن أكون فقيراً ساكناً في كوخ وحول الكتب الكثيرة على أن أكون ملكاً لا يميل إلى المطالعة .

مكولى



ليس المدامةُ مما أَسْتَرِيحُ له
وإنما لذتي كتبٌ أطلعها
ولا مجاوبة الأوتار والنغم
وخادى أبدأ في نصرتي قلمي
أحمد بن رضا المالتى



الدكتور سامعيل صبري عبدالله

القراءة والعلم



إذا قال المرء : « بالعلم تتقدم الأمم » أشاح البعض استهزاء ، وتبسم البعض الآخر في تسامح ، ولسان حال الجميع : أنت تردد عبارة مأثورة شائعة بين العديد من مثيلاتها التي تزدهر بها « حدائق الإنشاء » .
ومع ذلك كم واحداً منا يتأمل هذا القول المردّد ويتمثل مغزاه البعيد ؟
وكم واحداً منا يمارسه خارج نطاق التعلّم والتخصص حيث يختلط طلب العلم بطلب الرزق ، وحيث تكون المعرفة المحددة مهنة مميزة ينتمى أصحابها إلى « كادر » وتجمعهم نقابة ؟ ولا شك أن الدهشة لا بد أن تمتلك الكثير من الناس إذا بلغهم أن آخر ما وصل إليه علم الاقتصاد في تعبيراته الدقيقة والمعقدة وفي ختام تحليلات رياضية راقية ورائعة ، يلتقي تماماً مع الحكمة السائرة والعبارة المأثورة . فعلماء الاقتصاد يبرزون اليوم أن المعرفة بجوانبها الثلاثة : الثقافة والعلم والتكنيك ، هي العنصر الاستراتيجي

في التنمية الاقتصادية . فتوافر الثروات الطبيعية لا يكفي لإثراء الأمم ورفع مستوى معيشة الشعوب : فتلك الثروات في الأرض منذ أن وجدت الأرض ، وبالعلم وحده أمكن أن يضع بطن الأرض بعض ما تحمل في أحشائها ، وأمكن أن يشكل الإنسان مما تضعه من صلب وسائل متاعاً هو بهجة حياته الحديثة .

بل إن المال - أو رأس المال - لا يحدث بذاته التنمية . فكم من ملك عمرت خزائنه بأموال قارون وشقى شعبه وأتاهار ملكه ! إن العنصر الفعال الذي يخرج الثراء من الأرض ويحوّل المال من موات الخزائن إلى دم حي يسرى في عروق الاقتصاد حيوية ونشاطاً هو عمل الإنسان . ولكن قوة الإنسان العضلية محدودة ، إنه أبعد ما يكون عن أن يكون أقوى حيوانات الغابة .

ولو كانت القوة المادية وحدها هي الحكم لانقرض البشر من على سطح الأرض كما انقرضت من قبل طوائف كثيرة من الحيوان كانت تبهه جسداً . إن ما يميز الإنسان عن كل الكائنات التي تحفل بها الأرض أمران على أعظم قدر من الأهمية : العقل ، أى القدرة على المعرفة ، على استخدام المدارك الحسية بطريقة منظمة والربط بينها بعلاقات معينة بعكس الحيوان الذي يتحرك بالغريزة وحدها ؛ والمجتمع الذي لا يعيش الإنسان إلا به ، والذي بفضلته تصبح المعرفة ظاهرة اجتماعية يشارك الجميع في تكوينها فتصبح حصيلتها أعظم من أى معرفة فردية

في الوقت الذي يستطيع فيه كل فرد أن يستفيد من مجموع ما حصله المجتمع . فهذه المعرفة الجماعية يستطيع الإنسان أن يضفي على قوته العضلية المحدودة أضعافاً مضاعفات ما لها من فعل ، فيحوّل الأنهار ويجرّك الجبال ويمتطى البحر والجو - حتى إذا ضاق عنه البر والبحر والجو جميعاً ملأ الفضاء سفيناً .

وليس الأمر في هذا بمقصود على تلك الشعوب التي تعاني الفقر والتخلف . بل إن أعظم الدول تقدماً تدرك اليوم أكثر من أى وقت مضى أن المعرفة هي الأساس الصلب الذي قامت عليه حضارتها وإنبى تقدمها وتفوقها :

وهذا التقدم نفسه بما أفضى إليه من إطلاق قوى جبارة من أصغر الكائنات وإحداث صناعات جديدة يقتضى العمل فيها من أبسط عامل قدرأ كبيراً من المعرفة ، قد جعل تطوير المعرفة بشكل مستمر والعمل على نشرها على أوسع نطاق أمراً لا غنى عنه لاطراد التقدم . ولم تعد تلك الدول تقنع بمجهدا الخاص ، بل سعت إلى تنظيم التعاون فيما بينها أحياناً ، وأخذت تتصارع في ميدان العلم أحياناً أخرى . ومن المعروف أن النهضة الصناعية الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية قد استفادت إلى حد كبير من هجرة مئات العلماء من أوروبا فراراً من النازية والفاشية . ومن المعروف أن دول أوروبا الشرقية والصين قد بذلت كل جهد لاسترداد علمائها الذين كانوا قد استقروا في دول الغرب . وكلنا يذكر الضجة التي

اهتزت لها بريطانيا على أثر هجرة عدد كبير من علمائها إلى الولايات المتحدة وفي هذا يقول بعض الاقتصاديين : إن الصراع بين الدول الكبرى حول العلم والعلماء قد احتل اليوم المحل الذي كان للصراع حول مصادر المواد الأولية في القرن الماضي .

العلم ثمرة الجهد اجتماعي :

وقد يظن البعض أن محور الحديث كله هو العالم الفذ الذي يبرز أقرانه جميعاً ويوصل إلى اكتشافات تعتبر فتحاً جديداً ويمكن أن تظل أسراراً تحوطها الدولة بسياج من الغيرة ، ولكن هذا الظن لا يعدو أن يكون نظراً سطحياً للأمور . فالكشف العلمية ليست ظواهر قدرية يلهمها الموعودون . إن كل كشف علمي هو ثمرة جهود مضمّنة بذلها العلماء من مختلف البلدان جيلاً بعد جيل ، ثمرة لا يمكن تصورها بغير الشجرة التي تزهر على أغصانها وبدون مالها من جذور عميقة تنشعب في المكان وتضرب سحيقاً في أبعاد الزمن . بل إن العالم الفذ اليوم ليس إلا قائد فصيلة من الباحثين يجهدون جميعاً ويكدون ويبدلون في خدمة العلم حياتهم . ومن ناحية أخرى يقوم البحث العلمي على الاستعانة بأجهزة معقدة كما يستلزم نفقات باهظة . والمجتمع هو الذي يوفر هذه وتلك ، وهو لا يقدر على هذا إلا إذا بلغ مستوى معيناً من التقدم الثقافي والاقتصادي . وكثيراً ما يهاجر العالم من بلد إلى بلد ، لا سعياً وراء كسب مادي ، ولكن لأن البلد الذي يهاجر إليه يوفر له إمكانيات البحث . إن الجو الثقافي

العام المتقدم ونشاط الأبحاث العلمية في مجموعها والاهتمام بالعلم والعلماء ، هي عناصر البيئة الصالحة لانبثاق الكشوف العلمية . ومن ناحية أخرى ، إن أعظم الكشوف العلمية يمكن أن يظل أعجوبة عقلية إذا لم يرتبط بتقدم حضارى عام يجعل من الممكن تحويل نتائجه إلى تكتيك يغير وجه المجتمع . لقد اكتشفت الصين فكرة الطباعة قبل جوتنبرج بعدة قرون فلم تستخدمها إلا في صناعة « أوراق اللعب » ، في حين أدى اكتشاف جوتنبرج إلى ثورة ثقافية هزت المجتمع الأوربي من جذوره ... وخلاصة هذا كله هو أن المعرفة ظاهرة اجتماعية ، والعلم ظاهرة اجتماعية ، وأن التقدم الحضارى لا يمكن أن يكون نتاجاً بل جهد قلة من العلماء الأفاضل - لو تصورنا إمكان وجود هذه القلة في بلد متخلف - وإنما هو دائماً ثمرة تطور ثقافى عام إن لم يشمل المجتمع بأسره فهو يشمل على الأقل أغلب أفراده .

اكتشاف القراءة :

المعرفة إذن هي محرك التقدم . ووعاء المعرفة هو الكتاب . والسبيل إلى المعرفة هي القراءة . لقد اتفق رأى العلماء على أن يقسموا حياة البشر على سطح الأرض إلى فترتين . فالفترة الأولى امتدت عشرات الألوف من السنين ، ويطلق عليها اسم ما قبل التاريخ . أما الفترة الثانية فلا يعدو عمرها الآلاف القليلة وهي وحدها التي يتكون منها التاريخ . والحد الفاصل بين التاريخ وما قبل التاريخ ، الحد الفاصل بين الحضارة وما قبل الحضارة

على نطاق الأرض كلها بشعوبها وأجناسها وأجوائها المتعددة والمتنوعة ، ليس موقعة حربية عظمى ، وليس مولد إمبراطورية أو انهيارها ، وليس حدثاً طبيعياً كزحف الجليد أو تراجعهم ، وإنما هو حدث حضارى محض : اكتشاف الكتابة ، أو بعبارة أخرى اكتشاف القراءة .

ولم يقع الاختيار على هذا الحدث دون غيره كفيصل بين ما قبل التاريخ وبين التاريخ بالتأسيس على اعتبارات عملية خالصة تتمثل في أن الكتابة مكنت الشعوب التي عرفتها من أن تترك لنا حديثاً عن حياتها كما عاشتها وكما تصورتها ، في حين أن عالم الآثار وعالم الأجناس أو غيرها من العلماء يتعين أن يستنطقوا الآنية والأثافي ويؤولوا ما ينقبون عنه من رسم دارس ليلقوا قليلا من الضوء على حياة الشعوب فيما قبل التاريخ . فالحديث المكتوب ليس بالضرورة حديثاً غير مكذوب ، وتوافره لا يغنى العالم المحقق عن أن يمتحن صدقه بالمقارنة بين محتواه وبين ما تحكيه أطلال المعابد أو ترويه آثار البلاد المجاورة . وتقدم وسائل البحث العلمى ، وبصفة خاصة استخدام الأشعة والتحليل الكيميائى ونتائج أبحاث علم الأجناس المقارن وعلم الإنسان ، تجعل اليوم الكثير من أسرار المجتمعات البائدة فى متناول الباحث . . .

إن الدلالة الحضارية لاكتشاف الكتابة دلالة ذات أبعاد ضخمة ومتعددة ، إنها تمثل بحق بدء مرحلة حضارية مختلفة جوهرياً عن كل ما سبقها .

المعرفة سجل مفتوح :

بالكتابة أخذ الإنسان يدون على الحجر هشةً أو صلباً ، وعلى جلد الحيوان ، وعلى أوراق النبات ، وعلى ما صنعت يده من نسيج صوف أو كتان ، محصوره من المعرفة : ما تلقاه مشافهة عن السلف ، وما تعلمه من تجربته ، وما هداه إليه تفكيره . وبالقراءة لم يعد فرضاً على كل إنسان (أو كل جماعة من البشر) أن يبدأ معرفته من الصفر ، بل أصبح بوسعها أن يستأنف من حيث انتهى من سبقه . وهكذا أصبحت المعرفة البشرية نسيجاً متصلاً عبر القرون ، يتعاقب النساجون وتتفاوت مهارتهم ، ويتباينون تقليداً وإبداعاً ، ولكن النسيج لا ينقطع أبداً ما دب على سطح البسيطة بشر .

بالكتابة والقراءة أصبحت المعرفة البشرية سجلاً عظيماً : طالعته عبر التاريخ شعوب عديدة ، كان لبعضها فضل تسطير صفحات منه أو أبواب كاملة . أخذ اليونان عن حضارة مصر والشام وما بين النهرين بل فارس والهند ، ثم أثروا هذا التراث في عبقرية ، وكانت مدينة الإسكندر هي البوتقة التي انصهر فيها كل ذلك وخرج منها أعظم ما خلفه لنا العالم القديم . ثم أخذت روما عن مدرسة الإسكندرية وزادت على ما أخذت ونشرت تلك الحضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط كله . ثم دخل العرب تاريخ البشرية كشعب يتميز بقدرة فائقة على تمثيل الحضارات وهضم الثقافات يبني حضارة تمتزج فيها الشعوب في ظل مساواة

لم يعرفها. مجتمع قبله فينشط الجهد الثقافي ويزدهر البحث العلمي. ومن تعاليم الإسلام وثقافة اليونان وفارس والهند يقدم العرب للعالم كنوزاً جديدة من المعرفة. والأمر الغريب الذي ينبغي أن نتأمله هو أن ثقافة اليونان التي لعبت دوراً عظيماً في تقدم الفكر والبحث عند العرب كانت في خزائن بيزنطة التي أخذت دولتها في الانهيار. وعندما سقطت مدينة قسطنطين في يد محمد الفاتح ووفد علماءها بمخطوطات الإغريق إلى أوروبا، كانت هذه الثروة الفكرية هي الزاد الثقافي الذي ترعرع عليه عصر النهضة. وليس أدل على ذلك من أن الثقافة إذا ظلت محفوظة لدى قلة بمعزل عن حركة المجتمع فإنها لا تغنيه ولا يغيثها، بل تبقى كأحجار كريمة في جوف قبر يعلوها التراب.

الكتاب العلمي العربي :

ولقد فعلنا نحن العرب صنيع أهل بيزنطة، ففكرنا جانباً الدرر التي خلفها لنا أسلافنا الأجداد. وأحرق الحكام كتب ابن رشد في حين ولدت الفلسفة الأوروبية من جديد عن يد تلميذه القديس توماس الأكويني. ولم يجد الخوارزمي وابن الهيثم والبيروني والشريف الإدريسي وابن حوقل وجابر بن حيان وابن خلدون طوال بضعة قرون الخلف الصالح الذي يوالى أبحاثهم عن الرياضيات والفلك والجغرافيا والفيزياء والكيمياء. ولقد دفعنا ثمن ذلك غالياً: قروناً من الظلام والتخلف أصبحنا بعدها عالة على غيرنا.

واليوم ونحن نحاول أن نسترد مكاننا بين شعوب العالم لا بد أن

نذكر دائماً أن حضارة العرب كانت قائمة على الثقافة والعلم ولم تكن قائمة على السيف، وإلا ضاع ذكرها كما ضاع ذكر غيرها من الإمبراطوريات التي قامت على السيف وحده فما إن قل حده حتى طواها التاريخ في نسيان مطبق .

نعم ، إن عملنا الوطني والقوى لا بد أن يتسلح بالعلم فنحن نريد أن نبني الصناعة ، ولا يمكن أن نتمتع بشكل دائم على الخبرة المستوردة والآلة المستوردة . فلن يستقر بناؤنا الصناعي على أسس متينة إلا حين يكون لدينا عمالنا المهرة ومهندسون الأكفيا وعلماؤنا المجددون ، لأنه بهؤلاء جميعاً نستطيع أن نبتكر ونبدع ، وأن نطوِّع فنون الإنتاج الصناعي لظروفنا وألا ندفع للعالم المتقدم جزية تخلفنا في شكل أجر خبراء ومقابل براءات اختراع وأثمان آلات لا نستطيع إنتاجها محلياً . ونحن نريد أن نطور الزراعة لنخرج بها من طابعها الرتيب الذي تأخر عن سير الزمن . ولا سبيل لذلك إلا بالعلم وفنون الإنتاج الحديثة . ونحن نريد أن نقيم مجتمعاً اشتراكياً ونناضل من أجل الوحدة القومية . ولكن يجب أن نتذكر تلك الحقيقة التي أشار إليها الرئيس جمال عبد الناصر في أكثر من مناسبة: إن الثورة علم ، هي علم التغيير الاجتماعي .

نعم ، علينا أن نتعلم وأن نستزيد علماً بنفس الإصرار الذي يبديه الجندي الباسل حين يدافع عن الوطن أو العامل الواعي حين يدفع بعجلة الإنتاج . فالعلم بالنسبة لنا ليس ترفاً بل إنه سلاحنا الأساسي في معركتنا

الوطنية والقومية والاجتماعية . وليس العلم هو وحده ما تقدمه لنا المدرسة ، بل إننا لا نغالي إذا قلنا إن المدرسة تعلمنا كيف نتعلم . إن الكتابة مخزن المعرفة ، والقراءة مفتاح بيت الكنوز هذا . ومعنى ذلك أن القارئ العربي عليه ألا يقنع بما لقنه المعلمون والأساتذة . عليه أن يتذكر في حدود تخصصه أنه « ما زال أحدكم عالماً ما طلب العلم ، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » وعليه أن يتذكر أن التخصص وإن عمق معرفته بجزء من العلم يحد أفاقه ولا يجعل منه مثقفاً له المدارك العقلية الواسعة التي لا بد منها حتى يصبح في تخصصه عالماً مبرزاً . ومن ثم فالقراءة في فروع العلوم الأخرى ، بل في فروع المعرفة الأخرى ليست أمراً جوهرياً في تكوين المثقف ، بل حتى في تكوين المهندس النابغ ، والفيزيائي المبرز ، والطبيب الأملح ، والكيميائي الذي لا يشق له غبار . إن القراءة بالنسبة للمتعلمين ليست مجرد تسرية تجد سبيلها في بعض ألوان الأدب فحسب ، بل إنها تربية لا غنى فيها عن الكتاب العلمي . وعلى العالم العربي في هذا الصعيد واجب تقديم العلم لأبناء وطنه وتيسيره لغير المتخصصين ليكون لنا أدينا القوي في كل فروع العلم ولا نعيش عالقة على ما نقرأ بلغة أجنبية أو ما نترجمه لمؤلفين أجانب .

إسماعيل صبري عبدالله



علی میراد

متى وكيف وماذا نقرأ ؟



« القراءة تمد العقل بمادة المعرفة .
ولكن التفكير هو الذى يجعل مانقرؤه ملكاً خاصاً لنا ! »
(جون لوك)

القراءة . . . أهي ترف ، أم ضرورة ؟
كم كتاباً ينبغي للمثقف أن يقرأ ، كل عام ؟ . . . وكـم دقيقة يستطيع
أن يقرأ ، كل يوم ؟
ما هي الكتب - العربية ، والإفـرنجية - التي لا غنى للمثقف عن قراءتها ؟
ما هي أجدر الكتب العالمية - من جميع العصور - بالقراءة ؟
هل الترجمة فن ؟ وهل هي « أقل » قيمة ، وجهداً ، من التأليف . . .
أو « أكثر » ؟
أو ، بعبارة أخرى : لماذا نقرأ ؟ . . . ومتى نقرأ ؟ . . . وكيف نقرأ ؟ . . .
وماذا نقرأ ؟ . . .

. . . هذه بعض الأسئلة التي عنّ لي أن أطرحها للبحث في هذا
المقال ، وأن أحاول الإجابة عنها في إيجاز ، بالقدر الذى يتسع له المجال . . .

لماذا تقرأ ؟

« كل ما فعلته البشرية ، أو فكرت فيه ، أو رجعته ، أو
كانته ، يورقد بين صفحات الكتب ، محافظاً عليه ، كأنما
بواسطة يد سحرية ! »

(توماس كارلايل)

فوائد القراءة في هذا العصر « العملى » الذى نعيش فيه ، كثيرة . .
فأنت قد تقرأ : . . .

- ١- كى تزجى - أو « تقتل » - وقت الفراغ . .
- ٢- أو لتتقن حرفة ما . .
- ٣- أو لتنسى همومك ، وتهرب من نفسك . .
- ٤- أو لتعيش أحلامك التى عجزت عن تحقيقها فى حياتك . .
- ٥- أو لتذكى خيالك وتختبر ذكائك بالكتب المثيرة والقصص
البوليسية . .
- ٦- أو قد تقرأ لمتعة القراءة فى ذاتها ، إذا كنت تعشقها . .
- ٧- أو تقرأ لتوسع مداركك ، وتكتسب ما نطلق عليه لفظ « الثقافة »
بشئى مفاهيمها . .
- ٨- أو لتنمى شخصيتك وتغلو مرموقاً فى المجالس ، جذاب الحديث . .
- ٩- وأخيراً ، وليس آخرأ ، فأنت تقرأ لتزيد فهمك للإنسانية . .

.. ومن ثم يتسنى لك أن تقيم علاقاتك مع الناس على أسس السلام والمحبة..
 فإن ما تخرج به من قراءاتك في الكتب الجيدة ، من أن الناس جميعاً
 سواء ، في جميع الأقطار والعصور ، يجعلك أميل إلى أن تسلك مع
 أصدقائك ، وجيرانك ، ومخالطيك ، مسلماً ينطوي على التسامح ،
 حين تصادف بينهم شخصيات شاذة شبيهة بـ « الأب جوريو » ، أو
 « سيلاس مارنر » ، أو « ليدى ماكبث » .. إلخ .

متى تقرأ ؟

« هناك كتب تستحق أن يذوقها القارئ ..
 وكتب تستحق أن يلتهمها .. وكتب تستحق أن تمضغ وتضم !
 (فرنسيس بيكون)

قد تقول : ولكن عملي ومطالب حياتي لا تترك لي وقتاً للقراءة . .
 ولرد على هذا الزعم « الوهمي » — أياً كانت ضخامة مشاغلك
 ومسئولياتك — ألخص لك بحثاً ، مدعماً بالإحصاءات ذات الدلالة البليغة ،
 نشره الباحث « لويس شورز » بعنوان : « كيف تجد وقتاً لتقرأ » —
 How to find time to read وفيما يلي أهم ما انتهى إليه من نتائج
 وإحصاءات :

● إذا كنت قارئاً متوسطاً (عاديّاً) ، فأنت تستطيع أن تقرأ الكتاب
 العادي بمعدل ٣٠٠ كلمة في الدقيقة (لكنك لن تبلغ هذا المعدل ،

أو تحافظ عليه ، إلا إذا قرأت يوميا ، بانتظام . . كما لن تحافظ عليه في الكتب المتخصصة ، مثل العلوم ، والرياضيات ، والزراعة ، والشعر ، وكتب الأدب ذات الأسلوب الذي يستحق وقفة تأمل كل حين . . أو أى موضوع علمى جديد عليك) .

● ومعنى هذه السرعة ، أن تقرأ ٤٥٠٠ كلمة في كل ١٥ دقيقة . . فإذا ضربت هذا الرقم في ٧ أيام ، تكون الحصيلة ٣١,٥٠٠ كلمة في الأسبوع . . أو ١٢٦,٠٠٠ كلمة في الشهر . . أو ١,٥١٢,٠٠٠ (مليون ونصف) كلمة في العام ، نتيجة للقراءة مجرد ربع ساعة كل يوم !

● ولما كانت الكتب تتراوح في العادة بين ٦٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ كلمة في المتوسط ، فإن المحصول السنوى لقارئ « الربع ساعة في اليوم » يكون عشرين كتاباً في العام !

● وقد جرب هذه الطريقة طيب وعالم من أشهر أطباء العصر الحديث هو « سير وليم أويسلر » ، الذى تتلمذ عليه الكثيرون من أساطين الطب المعاصرين ، كما درس أطباء العالم كتبه المشهورة في الطب . . وقد عزا عارفه عظمته – فضلا عن تفوقه في فنه الخاص – إلى ثقافته العامة ، البعيدة المدى ، فقد كان واسع الاطلاع على ما فعله الجنس البشرى – وفكر فيه – خلال العصور المتوالية ، وكان يدرك أن السبيل الوحيد للوقوف على أفضل تجارب بنى الإنسان هو قراءة ما كتبوه في كتبهم . . لكن مشكلته كانت هى مشكلة كل رجل مشغول ، لا يملك خلال

الأربع والعشرين ساعة اليومية وقتاً يخرج عن حدود عمله ، سوى ما يقتطعه من ساعات قليلة للنوم وتناول الطعام وتلبية مطالب الحياة الضرورية .
 لكن « أوسلر » توصل إلى الحل الذى ينشده فى مرحلة مبكرة من حياته ، فنظمها على أساس أن يقرأ لمدة ربع ساعة كل ليلة قبل النوم مباشرة ، أيّاً كانت الظروف ! . . فكان إذا أوى إلى فراشه فى الحادية عشرة مثلاً ، يقرأ حتى الحادية عشرة والربع . . وإذا شغلته جراحاته أو أبحاثه حتى الثانية صباحاً ، يقرأ إلى الثانية والربع ، وهكذا . . ولم يشذ عن هذه القاعدة التى وضعها لحياته يوماً واحداً ، خلال نحو نصف قرن ! . . وكان الدستور الذى استنته لقراءته الليلية أن تكون منعقدة الصلة بمهنته وعمله ، فحصل من هذه القراءات على اطلاع واسع نادر المثال ، كفل التوازن فى شخصيته بين الثقيف المهنى والثقيف العام !
 وفى العالم كثير من أمثال هذا الطبيب الفذ ، نمّوا شخصياتهم بالقراءة فى غير نواحي عملهم أو تخصصهم . . وقد اشتهر الألمان بصفة خاصة بالإقبال على القراءة فى شتى الموضوعات ، ولعل هذا من عوامل تفوقهم وتعدد وجوه ثقافتهم وشمولها كافة مناحى المعرفة .

● ومن أمثلة الإقبال على القراءة - فى جميع الظروف - أن ملازماً فى الجيش الأمريكى (خلال الحرب العالمية الثانية) لفت الأنظار بتضخم ملف خدمته بشهادات التقدير من رؤسائه ، والإعجاب بسعة اطلاعه ووفرة معلوماته ، حتى دفع الفضول أحدهم إلى تقصى أسباب

هذه الظاهرة . . فبين له أن الضابط المذكور كان ينتهز كل فرصة ليقراً ، إلى درجة أنه كان إذا صدر إلى طابوره الأمر بالوقوف في حالة « انتباه » لبضع دقائق ، يخرج من جيبه كتاباً ليقراً فيه . . وكان قد نمتى في نفسه – منذ صباه الباكر – عادة أن يحمل في جيبه كتاباً صغيراً ليقراً فيه في أية لحظة لا يجد فيها شيئاً آخر يفعله . وقد وجد في هذه العادة متعة وفائدة ، وواظب على ممارستها في كل فترات الانتظار التي يضيعها أكثر الناس هباءً ، مثل فترات انتظار الأتوبيس ، والطعام ، والطبيب ، والحلاق ، والتلفون ، وحفلات السينما والمسارح . . إلخ . . وهي فرص تتيح لكل شخص أضعاف أضعاف الخمس عشرة دقيقة المطلوبة لقراءة عشرين كتاباً في العام ، أو ألف كتاب في نصف قرن !

. . ولو انصرف كل راكب أتوبيس أو ترام عندنا – من الجالسين على الأقل – إلى القراءة أثناء الطريق ، بدلاً من الاشتراك في الأحاديث العقيمة ، أو الانحياز إلى أحد الطرفين في المشادات ، أو التدخل في شئون بقية الركاب ، لأراحوا واستفادوا !

. . كل ما يلزمك لتنفيذ هذا البرنامج شيء واحد : أن تتوفر لديك الإرادة ، أى الرغبة في القراءة . . وعندئذ سيسهل عليك أن تجد ١٥ دقيقة من يومك تقرأ فيها ، مهما كانت مشاغلك ، بشرط أن تجعل الكتاب في متناولك في كل ظرف : ضع كتاباً في جيبك حين ترتدى سترتك ، وكتاباً آخر بجوار فراشك ، وثالثاً في الحمام ، ورابعاً في غرفة المائدة ، وهكذا . .

كيف تقرأ ؟

« الكتب هي ثروة الدنيا المحبوبة ، ونيراث الأجيال والشعوب »
(هنرى دافيد ثورو)

وقراءة الكتاب ، مثل تأمل اللوحة أو التمثال ، ينبغي لها ظروف معينة أو « عادات حسنة » لا بد من مراعاتها فيها ، « وعادات سيئة » يحسن تجنبها ، كما تتيح للقارئ أقصى متعة ، بأقل قدر من الجهد الضائع . . وقد أحصى الأخصائى « دونالد ماك كامبل » أهم هذه العادات « الحسنة » و « السيئة » فيما يلى :

● من العادات السيئة أو « العقبات » التى تعوق التأمل والقراءة المحمدية : المعدة الخاوية . . والمعدة الممتلئة أكثر من اللازم . . وخير غذاء يؤولك للقراءة المفيدة بعض الفاكهة . أما إذا تناولت أكلة ثقيلة ، فينبغى أن تنتظر ساعة على الأقل قبل أن تقرأ ، كى لا يصعد إلى رأسك الدم الذى يلزم بقاءه فى المعدة لساعد على الهضم .

● الإرهاق الجسمانى عدو آخر للتركيز اللازم أثناء القراءة . . فإن الطاقة الحرارية المطلوب توافرها أثناء القراءة الجادة ، تكاد تعدل الطاقة اللازمة للعبة رياضية خفيفة . على أن ذلك لا يعنى أن يقبل المرء على القراءة وهو فى حالة خمول تام ، بل يحسن أن يتمشى ولو قليلا فى الحجرة

قبل القراءة ، كى يزيل الحمول عن جسمه وعقله معاً ، وينشط الدورة الدموية ، إذ كثيراً ما يصيب حمول الجسم ذهن صاحبه بعدواه .

● ومن العقبات التى تعوق القراءة المجدية ، الشعور بالقلق ، أو الشوق الجنسي ، أو التوتر العصبى الناشئ عن الإمساك ، أو عن حاجة الجسم إلى شىء من الرياضة . . كما يلزم تجنب الضجيج أو المقاطعات المتكررة التى تفسد التأمل والاستغراق . . على أن توفير الجو الهادئ المريح ينبغى أن لا يغالى فيه ، كما فعلت تلك الثرية العجوز التى أعدت فى قصرها غرفة خاصة للقراءة ، بطنت جدرانها بالمواد العازلة للصوت ، وزودتها بأجهزة تكييف الهواء ، وبسائر أدوات الترف ومستلزماته . . فلما اكتملت لها كل أسباب الراحة ، فوجئت بما أفسد عليها كل تدبيرها : صارت لا تكاد تخلو إلى الكتاب فى صومعتها المثالية ، حتى يدهمها النعاس فى الحال !

● ولا بد لممارسة القراءة من مقعد مناسب ، يتيح جلسة « مريحة » ، لا ينحنى فيها العمود الفقري كالقوس أثناء انكباب القارئ على كتابه . . وينبغى أن تكون صفحة الكتاب موازية للوجه ، وعلى بعد نحو أربعين سنتيمتراً منه ، وأن تكون حافة الكتاب العليا فى مستوى العينين .

● وللإضاءة ، ودرجتها ، وزاويتها ، أهمية كبرى فى إغراء الشخص بالمضى فى القراءة ، وهو مستريح النفس والبصر ، أو تنفيره منها وصرفه عنها . . لذلك يجب أن يراعى المرء عند جلوسه للقراءة أن يكون الضوء

المنبعث من المصباح أو النافذة القريبة منصّباً على كتفه اليسرى إذا كان من عادته أن يمسك الكتاب بيده اليمنى . . أو العكس بالعكس .

● ويقتضى توفير الجو الملائم للقراءة أن يكون المكان جيد التهوية ، لا يفتقر إلى الأوكسجين اللازم لتنشيط الجسم والدهن . كما يحسن أن تكون درجة حرارة المكان معتدلة – حوالى ٢٠ درجة مئوية – بحيث لا يشكو الشخص من البرد أو الحر ، وإلا استيقظت غريزته من نومها لتطالب عقله بمزيد من الدفء أو الهواء ، أو بالعكس .

● ولكى لا يتسرب الملل إلى نفس القارئ ، ينبغي له أن يجعل في متناوله – حين يجلس للقراءة – خليطاً منوعاً من الكتب ، كى يدع الواحد ويتناول الآخر إذا انتابه الضيق من كتاب ، أو صرفه عنه مزاجه أو حالته النفسية . وكثيراً ما يحدث أن يعجب القارئ بكتاب فى ظل حالة نفسية معينة ، ثم لا يعجبه نفس الكتاب فى جلسة أخرى ، أو حالة نفسية مغايرة !

● وإذا جلست لتقرأ ، فعليك أن تحول بصرك عن الكتاب الذى تقرأه ، بين الحين والآخر – كل نحو خمس دقائق – لتلقى نظرة إلى الطريق ، أو إلى المبنى المواجه لك ، أو إلى السحب فى السماء ، فإن النظرة إلى بعيد تريح عضلات العين من الإجهاد ، وتردّها لها نشاطها من جديد . .

● ويجدر بك أن تراعى مبادئ أو قواعد معينة تتعلق بنوع المادة

التي تقرأها . . فإذا أخذت في قراءة كتاب من كتب القصص القصيرة مثلاً ، فلتحرص على أن تقرأ قصةً كاملةً منه – أو أكثر – في الجلسة الواحدة ، لأن القصة القصيرة وحدة متكاملة ، تفسدها التجزئة على أكثر من جلسة . . وبالنسبة للقصص الطويلة أو المسرحيات ، يحسن أن تقرأ فصلاً كاملاً منها في كل جلسة . . وإذا تعذر عليك فهم معنى كلمة أثناء قراءة القصة ، فلا تقطع تسلسل الأفكار بالرجوع إلى القاموس في التوقف واللحظة ، بل يمكنك وضع علامة سريعة تحتها بالقلم الرصاص ، للبحث عن معناها بعد الانتهاء من القصة أو الفصل ، ولا سيما أنه يندر في القصص أن يعجزك الجهل بمعنى لفظ واحد عن فهم السياق ولو بصفة مؤقتة . أما في الكتب غير القصصية – والكتب العلمية على وجه الخصوص – فإن اللفظ غير المفهوم قد يفسد عليك تذوق فقرة طويلة بأكملها . وهنا لا بأس من اللجوء إلى القاموس كلما استدعى الأمر .

● والقارئ العادي يقرأ أربع كلمات في الثانية ، أو حوالي ١٤,٥٠٠ كلمة في الساعة . وهذا يعني أن الشخص الذي يقرأ لمدة ساعة كل يوم ، يستطيع أن يقرأ نحو خمسين مليون كلمة في السنة ، أي نحو خمسين كتاباً كل عام (من الكتب المتوسطة ، ذات المائة ألف كلمة) . . على أن هذه السرعة يمكن زيادتها عن هذه النسبة بالتمرين (١) .

(١) وقد رأينا أن الأخصائي الآخر « لويس شورز » قدر سرعة القراءة بثلاثمائة كلمة في الدقيقة ، أي خمس كلمات في الثانية ، لا أربع !

ماذا تقرأ ؟

« في العلوم ابدأ بقراءة أحدث الكتب ، وفي الآداب أقمها ،
فالكلاسيكيات لا تبلى جلدها ، وهي دوماً حديثة » .

(إدوار بولوار ليتون)

* وقبل أن نستعرض الكتب - العربية والإفريقية - التي لا غنى
للقهف عن قراءتها ، (أو قراءة جانب منها على الأقل ، وفقاً لميوله ونزغاته) ،
والمراجع العالمية التي لا غنى له عن اقتنائها . . نبدأ بمحصر أبواب المعرفة
الرئيسية ، وهي حسب ترتيبها الأبجدي :

١ - آثار

٢ - أدب بمعناه الضيق ، الذي يطلق عليه بالفرنسية *Belles Lettres*

ويشمل : النقد ، المقالات ، السيرة الذاتية ، الرحلات .

٣ - أديان

٤ - تاريخ

٥ - تراث الأقدمين

٦ - تراجم (سير الخالدين)

٧ - دراما (مسرحيات)

٨ - سياسة

٩ - شعر

- ١٠ - علوم
 - ١١ - علم النفس
 - ١٢ - علوم اجتماعية
 - ١٣ - فلسفة
 - ١٤ - فنون جميلة
 - ١٥ - قصص
 - ١٦ - كلاسيكيات
 - ١٧ - موسيقى
 - ١٨ - موسوعات ومراجع
 - ١٩ - نشأة وتطور الإنسان
 - ٢٠ - هوايات وحرف (للرجل ، وللمرأة) .
- ومن العسير أن تلتقي ميول القراء جميعاً وأذواقهم ، أو أذواق أكثريتهم ، عند كتب معينة ، سواء من التراث القديم ، أو الإنتاج المعاصر . . .
العربي ، أو العالمي . . . وإذا كنت سأحاول هنا الإشارة إلى أهم الكتب والمراجع ذات القيمة الباقية والنفع الجليل لكافة المثقفين ، فما ذلك إلا من قبيل « الترشيحات » أو « الاقتراح » فحسب . . . ذلك أنني أومن بقول صمويل جونسون : « إن الإنسان ينبغي أن يقرأ ما يميل إلى قراءته ، وتقوده إليه - أو تغريه به - هواياته . . . فإن ما يقرؤه ” كواجب “ لن ينفعه إلا نفعاً ضئيلاً ! » .

ماذا تقرأ من التراث العربي القديم والأدب الحديث ؟

● ومهمة الاختيار هنا متروكة لذوق القارئ كما أسلفنا ، لذلك سأكتفي بمجرد التذكير بأسماء أشهر أعلام الفكر العربي القدماء والمحدثين - بغير ترتيب - تاركاً لكل قارئ أن يختار من مؤلفاتهم ما يتفق مع ميوله واتجاهاته :

فبعد القرآن الكريم وكتب التفسير والحديث - التي لا غنى عن قراءتها لمثقف - تجيء مؤلفات : الطبري ، ابن هشام ، الشريف الرضي ، الجاحظ ، الأصبهاني ، ابن عبد ربه الأندلسي ، القلقشندي ، ابن المقفع ، ابن الأثير ، المبرد ، النويري ، البلاذري ، ابن سينا ، ابن رشد ، الدميري ، ابن خلدون ، الغزالي ، ابن قتيبة ، ابن حزم ، ابن كثير ، ابن طفيل ، السهروردي ، أبي العلاء ، البحتري ، المتنبّي ، ابن الرومي ، عمر بن أبي ربيعة ، أبي العتاهية ، الأخطل ، أبي تمام ، جرير ، الفرزدق ، أبي نواس ، امرئ القيس ، الخنساء ، ابن زيدون ، بشار ، الهمداني ، الفارابي ، أبي حيان ، حسان بن ثابت ، البهاء زهير الخ ولا أنسى معجزة الأدب العربي القديم « ألف ليلة وليلة » ، ثم تراث الأدب الشعبي : قصص عنتره ، والظاهر بيبرس ، ، وسيف بن ذي يزن ، والوزير سالم ، وأبي زيد الهلالي . .

أما من أدياء ومفكرى العربية المحدثين فتحضرنى — على سبيل المثال لا الحصر — أسماء : الجبترى ، المويلحى ، رفاعة الطهطاوى ، جمال الدين الأفغانى ، الإمام محمد عبده ، قاسم أمين ، فرح أنطون ، المنفلوطى ، محمد تيمور ، البشرى ، طاهر لاشين ، المازنى ، محمد حسين هيكل ، الجارم ، العقاد . . ومن الشعراء : شوقى ، حافظ ، مطران ، العقاد ، على محمود طه ، كامل الشناوى ، محمود عماد ، الزهاوى ، الشابى ، جبران ، إيليا أبو ماضى (١) .

ماذا تقرأ وتقتنى من الكتب والمراجع العالمية ؟

« خير تعريف للكتاب فى نظرى أنه عمل من أعمال السحر ، تخرج منه أشباح وصور ، لتحرك كوامن النفوس وتغير قلوب البشر » .
(أناتول فرانس)

● فإذا انتقلنا من مجال الكتب المؤلفة بالعربية ، إلى مجال الكتب العالمية ، سواء المترجم منها إلى لغتنا ، أو الذى لا تيسر قراءته إلا بلغته الأصلية أو إحدى ترجماته الإفرنجية ، ألقينا الميدان ينفسح ويتشعب إلى غير حد . . ويكفى لإدراك مدى هذا الاتساع والتشعب أن تعلم أنه

(١) لم أورد هنا أسماء المعاصرين الأحياء — مد الله فى أعمارهم — من الأديباء والشعراء ، فهم معروفون للقراء بطبيعة الحال . .

في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يصدر كل عام ١٥ ألف كتاب جديد . . . وأن الطبقات الشعبية من الكتب التي تصدرها دور النشر الأمريكية بلغت في عام ١٩٤٧ نحو مائة مليون نسخة . . . وفي عام ١٩٥١ ارتفعت إلى ٢٣٠ مليون نسخة . . . ثم واصلت قفزاتها حتى بلغت في عام ١٩٦٥ نحو ٤٥٠ مليوناً . . . وهذه الكتب تعرض هناك الآن في نحو مائة ألف مكان ، إذ لا يقتصر عرضها على المكتبات وحدها ، وأكشاك الصحف ، بل تباع أيضاً في حوانيت البقالة ، والصيدليات ، ومحطات خدمة السيارات ، علاوة على الموانئ ، والمطارات ، ومحطات السكك الحديدية . . . إلخ .

ذلك أن العصر الذي كان اقتناء الكتب فيه وفقاً على الأغنياء والقادرين قد انتهى وانقضى ، وكما انتشرت هواية جمع الطوابع فصارت هواية التلاميذ ، بعد أن كانت هواية الملوك ، انتشرت هواية اقتناء الكتب فصارت ظاهرة ديمقراطية – بعد أن كانت ترفاً أرستقراطياً – وأصبح للكتاب مكان ، ومكانة ، في بيت كل مثقف ، أياً كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ، ومهما بلغت ضآلة موارده المالية ، وذلك بفضل الطبقات الشعبية أو ال Paperbacks – أي ذات الغلاف الورق ، غير المقوى – التي صارت في متناوله .

وبفضل هذه الطبقات الرخيصة الثمن بات في وسع كل إنسان أن يقتنى كتباً في كافة فروع المعرفة ، وليس في الفرع الذي يتخصص

فيه بحكم عمله . ذلك أنه خير لكل منا أن يعرف عن كل فرع من فروع المعرفة شيئاً – بصفة عامة – من أن يعرف عن فرع واحد كل شيء ، ولا يعرف شيئاً ما عن سواه من الفروع !

وبصفة مبدئية ، ينبغي أن يقتنى كل قارئ في بيته المراجع الأساسية التالية ، أيّاً كان عمله أو اتجاه هوايته في القراءة :

١ – معجم لغوى أو أكثر ، من وإلى اللغة التى يتقنها واللغة التى يقرأ بها .

٢ – دائرة معارف ، أو موسوعة ، واحدة على الأقل (سواء الموسوعة البريطانية ، المؤلفة من ٢٤ جزءاً ، أو الأمريكية ، المؤلفة من ثلاثين جزءاً) ، إذا كان هو أو أفراد أسرته يقرءون على نطاق واسع ، قراءة بحث وتخصص) . . أو موسوعة موجزة من ذات الجزء الواحد ، ومثلها كثير ، فى جميع اللغات الحية .

٣ – دليل سنوى يلخص أهم أحداث كل عام ، من النوع الذى يطلق عليه World Almanac ، وتوجد عشرات الطبقات المختلفة منه كل عام ، باللغتين الإنجليزية والفرنسية . وتجد فيه الإجابة عن مئات الأسئلة التى تثيرها المناسبات ، إلى جانب ألوان من المعلومات العامة التى تهتم كل إنسان .

٤ – دليل سنوى لأهم الشخصيات التى أدت دوراً هاماً فى كافة المجالات : فى العلوم ، والطب ، والسياسة ، والأدب ، وغيرها ، ويطلق

- على هذا الدليل بالإنجليزية (Who's Who) .
- ٥ - معجم لسير الأعلام : في كافة العصور ، وكافة البلاد ، وكافة نواحي الحياة . (والموسوعات الكبرى ذات العشرين أو الثلاثين جزءاً قد تغنى عن هذا المعجم) .
- ٦ - أطلس عالمي أو كتاب للخرائط ، يشمل خرائط تفصيلية لجميع القارات والدول الكبرى ، مع إحصاءات عن عواصم العالم وعدد سكانها والمسافات بينها وخطوط الطيران وجداول التوقيت الزمني في كل منها . . الخ .
- ٧ - دليل طبي أو صحي ، يصلح مرشداً لجميع أفراد الأسرة في كافة شئون الصحة والمرض ، في انتظار حضور الطبيب ، أو لتنفيذ تعليماته بعد انصرافه ، وقد يغني عن الطبيب في كثير من الحالات ، سواء للعلاج أو للوقاية .

الكتب المترجمة . . والكتب التي لم تترجم بعد

« الكتاب الجيد مثل دم الحياة الثمين لأرواح علوية ، محفوظ ومخبوء خصيصاً من أجل حياة أخرى ، وراء الحياة » .

(جون ميلتون)

● ونعود ، من هذا الاستطراد ، إلى حديث الكتب العالمية الجديرة بالقراءة : ما تترجم منها ، وما لم يترجم . ومن أسف أن كل ما تترجم حتى

الآن من الكتب والمراجع التي لا غنى عنها للمثقف لا يزيد على واحد في المائة مما ينبغي أن يترجم . . . فضلاً عن أن الذي ترجم لا ينتظمه أى تخطيط منهجى ، فهو لم يترجم وفقاً لخطط أو دراسات ذات أبعاد محددة ، وإنما ترجم بناء على اقتراحات فردية متناثرة من كل مترجم يقع في يده كتاب يتوسم فيه الصلاحية فيعرض فكرة ترجمته على الناشر أو الهيئة التي يتعامل معها ، فإذا وافق أو وافقت خرج الكتاب إلى النور ، وهكذا ، دون ما رابطة حقيقية بين هذا الكتاب أو ذلك .

أقول هذا وأمامى مئات من الكتب والدراسات التي تولت إصدارها أكبر الجامعات العالمية ، وأشهر الأخصائيين ، في كل فرع من فروع المعرفة ، تتضمن قوائم تفصيلية بنحو ثلاثة آلاف كتاب انتفتت آراء جميع ذوى الشأن على جدارتها بالقراءة والاقتناء ، (ومن ثم جدارتها بالترجمة إلى شتى اللغات الحية) ، وهي كتب تغطى جميع عصور الحضارة البشرية ، منذ أيام الإغريق حتى يومنا الحاضر :

- فهذه قائمة يرشحها المفكر الإنجليزى الشهير «الدوس هكسلى» . .
- وهذه أخرى انتقاها الأديب الألماني الكبير «توماس مان» . .
- وثالثة من وضع فيلسوف الصين المعروف «لين يوتانج» . .
- ورابعة للكاتب الإنجليزى المعاصر «هسكيث بيرسون» . .
- وخامسة للناقد والمعلق المشهور «ج . ب . بريستلى» . .
- وسادسة وعاشرة وعشرون . . إلخ . . وضعتها جامعات : لندن ،

كبريدج ، سانت أندروز ، أبردين ، أكسفورد ، ليدز ، ليفربول ، ديجون ، باريس ، نيويورك ، واشنطنجتون ، كولمبيا ، ييل ، هارفارد ، بنسلفانيا ، شيكاغو ، وسكونسين ، كانساس ، فرجينيا ، سيراكوز ، كاليفورنيا ، تيسى ، سنساقى ، منيسوتا ، كولورادو ، بروكلين ، كارولينا الشمالية . . ومعهد كارنيجى . . ونادى القلم الدولى . . إلخ .

وثمة قوائم وضعت حسب التسلسل الزمني ، تبدأ بكتب اليونان . . فالرومان . . فالعصور الوسطى . . فعصر النهضة . . فعصر أسرة تيودور فى إنجلترا . . فالقرن السابع عشر . . وما تلاه . . إلى القرن العشرين . . وقوائم روعى فيها التقسيم النوعى حسب فروع المعرفة المتشعبة : فخصصت فصلاً لكل فرع : لكتب الأديان ، فكتب الآثار ، فالأدب ، فالعلوم (وهذه تنقسم بدورها إلى عشرات الأبواب والفصول ، بقدر تعددها) ، ثم الفلسفة ، فالفنون ، فالقصص . . إلخ . وقد سبق بيان أبواب المعرفة بالتفصيل .

. . وهذا نوع آخر من القوائم تعددت أبوابه بتعدد البلاد والحضارات واللغات : فهذه قائمة بالكتب الألمانية ، فى جميع العصور . . وقوائم أخرى بالكتب الإيطالية . . والفرنسية . . والإنجليزية ، (والأمريكية) . . والروسية . . والنمسية . . إلخ . . ثم كتب الشرق ، من عربية قديمة ، وفارسية ، وهندية ، وصينية ، ويابانية .

وبعض الدراسات تضع قوائمها وفقاً لألوان الكتابة وأساليبها وقولها

الفنية : قائمة للدراما (المسرحيات) . . وأخرى للرواية . . وثالثة للقصة القصيرة . . ورابعة لدواوين الشعر . . وخامسة للرحلات . . والسير . . والمقالات . . والرسائل . . والنقد . . إلخ .

ثم هذه قائمة ترشيحات لأعظم مائة كتاب في جميع العصور . . (وقد ورد فيها ، بين هذه الكتب المائة : القرآن ، والتوراة ، وألف ليلة وليلة . . إلخ . .)

. . وأخرى بأعظم خمسمائة كتاب كلاسيكى ، من جميع البلاد واللغات . .

وثالثة بأسماء أهم مائة مرجع ، في شتى فروع المعرفة العشرين . . ورابعة بأحب كتب العالم إلى القراء . منذ فجر التاريخ . .

وخامسة بأشهر كتب القرن العشرين . .

وسادسة بأعظم ستين قصة في جميع العصور . .

وسابعة بالكتب التي غيرت وجه التاريخ والحضارة . . أو التي ساهمت

في هز كيانه المجتمع الإنساني . .

وثامنة بأشهر كتب الأطفال والصبيان في شتى اللغات والبلاد . .

وتاسعة بأشهر قصص الحب في آداب العالم . . أو أعظم القصص

الواقعية . . أو أشجع الجرائم والمحاكمات الجنائية . . أو أخلد القصص

الطويلة والقصيرة . .

. . وهذه قائمة ترشيحات وضعتها جامعة (شيكاغو) ، تتضمن

« برنامجاً خمسينياً » لقراءة أعظم كتب العالم في خمس سنوات . . . وقد خصصت الجامعة لكل سنة من السنوات الخمس مجموعة من الكتب المطبوعة في طبعات شعبية ذات غلاف ورقي ، لا يزيد ثمنها على ١١ دولاراً على وجه التقريب !

وتقرر الناقدة الأمريكية « آن ريشتر » أن دراسة أو تقريراً واحداً من التقارير التي من هذا النوع ، تعطى القارئ مفتاحاً ييسر له الحصول على حصيلة ثقافية ينفق عليها شخص آخر ما لا يقل عن ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار ، إذا تلقاها عن طريق الدراسة في إحدى الجامعات أو المعاهد العليا !

وفي هذه الأمثلة الكافية ، فإن الحديث في موضوع الترجمة ، وتخطيط ما ينبغي أن يترجم ، والإمكانات التي يجب أن توضع في خدمة حركة الترجمة في بلادنا ، حديث طويل ، يثير الأشجان . . . ومن هذه الأشجان أن كبار الأدباء الأكفيا عندنا لا يزالون يعرضون عن الترجمة ، باعتبار أنها - في رأيهم - دون التأليف ، من حيث المكانة الأدبية التي تحقها لهم . . . وهي نظرة متخلفة ، فنّدها ودحضها نادى القلم الدولى في اجتماعه الذى عقد في طوكيو باليابان منذ سنوات قليلة (وقد مثل مصر فيه يومئذ الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد ، ومثل بريطانيا الشاعر « ستيفن سننتر » ، وحضره الأديب الأمريكى « شتاينبك » وغيره من كبار الفنانين وقادة الفكر كراقبين للمؤتمر) . وقد

أجمع المؤتمرين في الكلمات التي ألقوها ، وفي القرارات التي اتخذوها ،
على النقاط الآتية :

أولاً : أن الترجمة « فن » ينبغي أن يحتل مكانه بين سائر الفنون
الأخرى ، من أدب ، ونحت ، وتصوير ، وموسيقى . . . والمترجم فنان
ينبغي أن يحتل مكانه بين الشاعر ، والروائي ، والكاتب المسرحي ،
والنحات ، والمصور ، والموسيقى ، وغيرهم^(١) .

ثانياً : أن كبار الأدباء ينبغي أن يتجهوا إلى الترجمة ، فإنهم
بإحجامهم يتركون هذا الميدان وفقاً على تجار الفن والدخلاء عليه ،
ويضرون بصالح الشعوب ضرراً بليغاً .

وقد ناقش المؤتمرين أسباب إحجام كبار الكتاب عن اقتحام ميدان
الترجمة ، ولخصوها فيما يلي :

(أ) الجهد العظيم الذي تتطلبه ترجمة الأعمال الأدبية والفنية .

(ب) قلة الجزء الذي يلقاه المترجم . فالترجمة في نظر الكثيرين
تجيء في المرتبة الثانية من حيث الخلق ، والمترجم في نظر الكثيرين « ظل »
للمؤلف الأصلي . وأكالييل الغار تقدم للمؤلف في الحالتين ، سواء عند
تأليفه العمل الأصلي ، وعند ترجمته من لغته إلى لغة أخرى بواسطة

(١) من المعروف أن الأديب الروسي « باسترناك » - الفائز بجائزة نوبل في الأدب
عام ١٩٥٨ - قد اشتهر كتربح لأعمال شكسبير إلى اللغة الروسية ، قبل أن يشتهر كؤلف
لقصة « دكتور جيغانجو » ! . . . وقد لخص هذه النقاط عن تقرير المؤتمر الأستاذ أنيس توفيق

الترجم . (وقد أطلق المؤتمرون على المترجم لقب « الجندى المجهول » !)
 (ج) طول المدة التي تتطلبها ترجمة عمل فني كبير .

ثالثاً : أن للترجمة دوراً خطيراً في العالم المعاصر ، فهي تخلق التفاهم
 الإنساني الذي يساهم في زيادة فرص السلام العالمي .

وتعليقاً على ذلك ، لا يملك المرء إلا أن يتساءل : ماذا كان يمكن
 أن يكون عليه عالمنا لو لم تترجم الكتب السماوية ، وأعمال هوميروس ،
 وسوفوكليس ، ودانتى ، وشكسبير ، وسرفانتس ، وجوته ، وتعاليم الفلاسفة
 وقادة الفكر ، والآثار العلمية الكبرى ، إلى لغات العالم المختلفة ؟ !

وأحب أن أضيف إلى هذا التساؤل ، في مرارة ، نيابة عن القارئ
 العربي : ماذا ترجم حتى الآن إلى لغتنا العربية من أعمال هؤلاء الأعلام ،
 وغيرهم مئات ومئات ؟ . . وماذا ترجم من تعاليم الفلاسفة وآثار قادة
 الفكر ، في جميع العصور ؟ . . ثم ماذا ترجم من المراجع والموسوعات
 وأمهات كتب العالم ؟ . . وماذا ترجم من الكتب العلمية والأدبية والفنية
 الكبرى ، التي تعتبر حجر الأساس في حضارة دول الغرب ؟

ومتى يترجم — من أجل مائة مليون عربي — الإنتاج العالمي المعاصر ،
 في كافة ميادين المعرفة ؟

متى يترجم إنتاج أساطين الفكر والعلم والأدب في العالم في القرن
 العشرين ، والقرن التاسع عشر ، والثامن عشر ، والسابع عشر ؟
 متى يترجم التراث الكلاسيكي الأوربي منذ عصر النهضة ، وما

قبل عصر النهضة ؟

متى يترجم التراث اليونانى القديم ، بأكملة ؟ !
متى يترجم التراث الصينى والهندي القديم ، من الحكمة ، والفلسفة ،
والفكر ، والفن ؟

بل متى يترجم التراث « المصرى القديم » ، الذى تزخر مكتبات
أوروبا وأمريكا بترجماته إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية وسواها ،
ولا نرى نحن أية ترجمات له إلى لغتنا العربية ؟

ومتى . . ومتى . . ومتى . . ؟

وفى هذا القدر الكفاية . . فالحديث يبدو بلا نهاية !

عامى مراد



شيشرون" قال قولاً
إنّ بيتاً دون كتبٍ
حبّذا قول النصح
جسدٌ من غير روح
عيسى إسكندر المعلوف

الفهرس

صفحة	
٣	الإهداء
	رجب البنا
٧	قصتي مع الكتاب
	الدكتور حسين كامل بهاء الدين
١٩	بساط الريح السحري
٢٣	منى إليك: الكلمة المكتوبة حرية والتزام
٢٥	الأستاذ عارف يقول: نحن نقرأ لنعرف
	الدكتور طه حسين
٢٩	زاد الشعب
	عباس محمود العقاد
٣٧	لماذا هويت القراءة
	الدكتور حسين فوزي
٤٩	القراءة فن
	الدكتور السعيد مصطفى السعيد
٦٧	القراءة والثقافة
	السيد أبو النجا
٧٩	القراءة مبدأ حسابي
	عادل الغضبان
٨٩	الكتاب
١٥٣	

صفحة

٩٤	الشعر والقارئ (قصيدة)	الدكتور جمال الدين العطيبي
١٠٩	القراءة والرأى العام	الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله
١١٧	القراءة والعلم	حلمى مراد
١٢٩	متى وكيف وماذا نقرأ؟	

١٩٩٨/١٥٢٧٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5650-1	الترقيم الدولي

١/٩٨/٦٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

لماذا نقرأ ؟

لطائفه عن المفكرين

«عندما سألتني سائل عن أكبر دافع حفزني إلى القراءة.. أجبت بلا تردد: هذا الكتاب الصغير الذي أصدرته دار المعارف منذ سنوات فكان له تأثير السحر عليّ وعلى عشرات الآلاف من أبناء جيلي.

وبمناسبة المناخ الثقافي المتميز الذي أوجده مشروع السيدة سوزان مبارك للقراءة للجميع، تعيد دار المعارف طبع هذه النسخة النادرة من الكتاب كما هو، وبنفس الحروف، مع إضافة مقال للدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم، لأن الأجيال الجديدة أحوج ما تكون الآن لتعرف فعلاً لماذا تقرأ.. ومادا تقرأ..»

عبد الباق

١/٨١٣٥٠٠

